لهيب الثلج

- كيف توصّل (أدهم صبرى) إلى مكان زميلته ، التى فقدها وسط ثلوج (موسكو) ؟
- ماذا سيفعل الرفيق (ياكوف) ، لمواجهة (رجل المستحيل) فى بلاده ؟
- تُرى .. أينجح (أدهم) فى إنقاذ (منى) ، أم يلقى حتفه وسط لهيب الثلج ؟
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، لترى كيف يعمل (رجل المستحيل) .



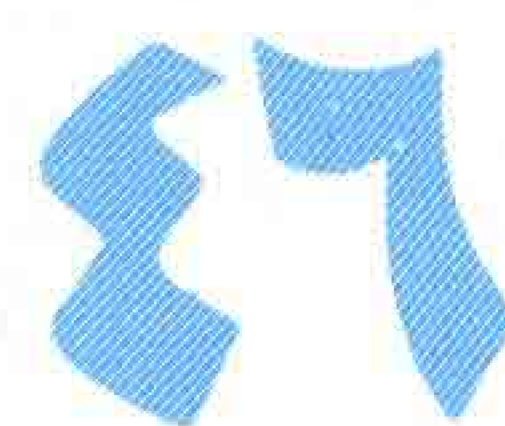
العدد القادم : الرصاصة الذهبية

المؤلف



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة



الثمن فى مصر

وما يعادل دولاراً أمريكيا فى سائر الدول العربية والعالم

رجل المستحيل ● لهيب الثلج ● ٤٦ ● المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة ●

روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل

لهيب الثلج

٤٦

باسل

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

١ ــ الأصــدقاء ..

توقَّفت سيارة سوداء صغيرة ، أمام السفارة المصرية فى (موسكو) ، وهبط منها رجل بدين الجسم ، طفولى الملامح ، وتبعه رجل طويل ، ممشوق القوام ، أسرع كلاهما يبرز أوراقه للجندى السوفيتى ، المكلَّف حراسة المبنى ، ثم تقدَّما إلى السفارة بخطوات سريعة ، ولقد استقبلهما السفير المصرى بنفسه ، وقال الطويل يقدِّم نفسه إلى السفير :

ــ المقدَّم (حازم عبد الله) من المخابرات المصرية يا سيِّدى السفير .. وهذا زميلى (قدرى) ، خبير التزييف فى الإدارة .

ابتسم السفير ، وهو يلمح توتُّر (قدرى) ، وتلفُّته حوله ، وقال فى هدوء :

ــ تسعدنى مقابلتكما ، إنه ينتظركما فى شوق .

تركَّزت نظرات (قدرى) على وجه السفير ، وهتف فى لهفة :

ــ أين هو يا سيِّدى ؟

جاء من خلفه صوت هادئ ، يقول فى وُدٍّ :

ـ خلفك يا صديقى البدين .

استدار (قدرى) فى سرعة وخفَّة ، لا يتناسبان مع حجمه الضخم ، وهتف فى سعادة :

ـ (أدهم) ؟.. ما أسعدنى الآن !!

ثم اندفع نحو (أدهم صبرى) ، وعانقه فى وُدٍّ ، وربَّت على كتفيه فى قوة ، فضحك (أدهم) وهو يقول مداعبًا :

ـ يا إلٰهى !!.. هل يسيِّرون القطارات داخل السفارة ؟

أطلق (قدرى) ضحكة عالية مجلجلة ، وصاح فى مرح :

ـ أوحشتنى دعاباتك يا صديقى العزيز .. كيف حالك ؟

التفت (أدهم) يصافح (حازم) فى حرارة ، وهو يقول :

ـ فى خير حال أيها الأصدقاء .. كيف حالكما أنتما ؟

أجاب (حازم) فى رصانة :

ـ لقد أتينا هنا فى مهمة رسميَّة يا صديقى .. فنحن تحت إمرتك ، حتى نستعيد (منى) .

بعث ذكر (منى) مزيجًا من الحنان والحزن فى عينى (أدهم) ، وقال فى هدوء ، وإن نمَّ صوته المختلج عن انفعاله :

ـ حمدًا لله على سلامتكما يا صديقىَّ .. سنتناول وجبة خفيفة ، حتى نسدّ جوع صديقنا (قدرى) ، ثم أقصّ عليكما القصة كلها فى مكتب سيادة السفير ، ونحن نشرب الشاى على الطريقة المصرية .

ثم استعاد صوته رزانته ، وهو يردف فى حزم :

ـ هيَّا بنا .

* * *

جلس رجال المخابرات الثلاثة يشربون الشاى المصرى ، فى حجرة السفير ، واعتدل (أدهم) وهو يقول :

ـ أنتما تعرفان بالطبع كيف بدأت القصة ، بإلقاء القبض على شبكة تجسُّس فى مصر ، وهروب زعيمها (أندرية جريج) إلى (موسكو) ، قبيل الإيقاع بالشبكة ، ثم كلَّفتنى المخابرات المصرية الحضور إلى هنا ، وإلقاء القبض على ذلك الوغد ، وإعادته إلى القاهرة .. ولقد حاولنا ذلك بالفعل ، ولكن ذلك الوغد تآمر ضدنا ، وتسبَّب ذلك فى وقوعنا فى فخ أعدَّته لنا سلطات مكافحة التجسُّس السوفيتية ، بقيادة الرفيق (ياكوف) ، الذى ألقى القبض علىَّ ، وأطلق رجاله النار

على (منى) ، وتم اعتقالى فى (سيبيريا)(*) .

صمت (أدهم) عند هذه النقطة ، وكأنه يستعيد ذكرى هذه اللحظات ، ثم استطرد :

ــ وفى (سيبيريا) استسلمت أنا تمامًا للأسر ، وأنا أظن أن (منى) قد لقيت حتفها ، ثم عرفت بمحض الصُّدفة أنها مازالت على قيد الحياة ، فى مكان ما فى (موسكو) .. وهنا قرَّرت الفرار من أكثر معتقلات العالم هولاً .. وبعد مخاطر رهيبة ، وصلت أنا وذلك الوغد (أندريه) إلى سفارتنا هذه ، وتم ترحيله إلى القاهرة ، واعتبرت المهمة منتهية وناجحة عند هذه النقطة ، ولكننى قرَّرت عدم العودة إلى القاهرة ، إلَّا بعد استعادتى (منى)(**) .

صمت (أدهم) مرَّة أخرى ، ثم رفع عينيه إلى زميليه ، وقال فى هدوء :

ــ ولن يكون ذلك الأمر بالهيِّن ، أو البسيط يا صديقى .. سيكون أمرًا أشد هولاً مما سبق ، حتى أننى أكاد أشتمّ رائحة جليد يلتهب فى (موسكو) .

(*) راجع الجزء الأول (العين الثالثة) .. المغامرة رقم (٤٤) .

(**) راجع الجزء الثانى (القضبان الجليدية) .. المغامرة رقم (٤٥) .

تبادل (قدرى) و (حازم) نظرات باسمة ، ثم رفع (قدرى) حقيبة صغيرة ، وضعها فوق المنضدة ، وفتحها وهو يقول :

ــ أصدقك القول يا صديقى ، أن السوفيت يفتشون حقائب زوَّارهم بدقَّة متناهية ، وبنوع من الشك الغريزى ، يجعل من المستحيل تقريبًا تهريب أى سلاح إلى داخل بلادهم ، ولكن ...

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيه ، وهو يستطرد :

ــ ولكنهم أفرجوا عن محتويات حقيبتى الصغيرة هذه ، دون أن تراودهم ذرَّة واحدة من الشك .

وأدار الحقيبة المفتوحة لتواجه (أدهم) ، وأردف :

ــ وهى لا تحوى كما ترى سوى معجون حلاقة ، ومعجون أسنان ، ولُعبة من البلاستيك ، وعدد من زجاجات العطر ، وبعض الأقلام ، وأوراق الكتابة .

سأله (أدهم) ، وهو يبتسم فى هدوء :

ــ هل تنفجر الأقلام ؟

أطلق (قدرى) ضحكة مجلجلة ، وقال :

ــ لقد انقضى عهد الأقلام المتفجِّرة منذ زمن طويل يا صديقى .. إن ما تحويه هذه الحقيبة هو مجموعة من أفضل مبتكرات القسم العلمى بالإدارة .

ثم التقط اللُّعبة البلاستيكية ، وأخذ يحل أجزاءها فى مهارة ، وهو يقول :

ــ لو أننا حللنا هذه اللُّعبة الطريفة ، وأعدنا تركيبها بصورة أخرى ، فسنجدها عبارة عن مسدَّس من بلاستيك مقاوم للحرارة ، وأربع خزانات ذخيرة ، تحوى الواحدة عشر رصاصات قاتلة .

كان قد انتهى من تركيب المسدس البلاستيكى ، فناوله إلى (أدهم) ، الذى أخذ يفحصه فى إعجاب ، على حين واصل (قدرى) حديثه قائلًا :

ــ أما زجاجات العطر ، فهى نوع متطوِّر من صبغات الشعر ، يمكنها أن تبدِّل لون شعرك فى لحظة واحدة ، كما يمكن إزالتها بمحلول ، يتم إنتاجه بإذابة أوراق الكتابة فى كوب ماء صغير .. ومعجون الحلاقة عبارة عن بولى إيثيلين سائل ، يمكنك من صنع أقنعة مشابهة تمامًا لبشرة الوجه .. أما معجون الأسنان ، فهو نوع من صبغات البشرة ، يعطيه اللون المناسب ، بإضافة أحبار الأقلام ، التى تحوى قاعدتها فى الوقت نفسه مجموعة مثالية من عدسات العيون الملوَّنة .

اتسعت ابتسامته ، وهو يردف فى سعادة :

ــ إنها حقيبة متكاملة يا صديقى ، والحقيبة نفسها عبارة عن أحدث جهاز تزييف فى العالم ، ومعه أفضل كمبيوتر للتزوير .

عقد (أدهم) حاجبيه فى تساؤل ، وغمغم :

ــ كمبيوتر للتزوير ؟!

أشار (قدرى) إلى صدره ، وقال فى مرح :

ــ إنه أنا يا صديقى ، فى خدمتك حتى نستعيد (منى) معًا .

أطلَّت نظرة امتنان من عينى (أدهم) ، ونهض إلى النافذة ، وكأنه يحاول إخفاء انفعاله ، وساد الصمت طويلًا فى الحجرة ، ثم استدار إليهم (أدهم) ، وقال فى صوت هادئ قوى :

ــ لقد أثبتما لى أن الأصدقاء المخلصين ، هم خير هبة من الله (سبحانه وتعالى) فى هذه الحياة .. وبمعاونتكما سنستعيد (منى) .. سنستعيدها يا رفاق .

* * *

٢ ــ فى ظلام الليلْ ..

دفع الرفيق (ياكوف) باب حجرتـه فى حنـق واضح ، وجلس إلى مكتبه وهو يهمهم بكلمات ساخطة ، مما حدا بزميله (إيفانوف) إلى سؤاله مبتسمًا :

ــ ماذا بك ؟

صاح (ياكوف) فى غضب :

ــ هؤلاء الأطبـاء الحمقـى فى الإدارة ، إنهم يقفـون فى طريقى .. إننى أفكّر جدّيًا فى إرسالهم إلى (سيبيريا) .

أخفى (إيفانوف) ابتسامته فى صعوبة ، وهو يسأله :

ــ ألم تستعد المصرية ذاكرتها بعد ؟

صاح (ياكوف) فى حنق :

ــ نعم .. إنها تدّعى أنها لا تذكر شيئًا ، وهؤلاء الأطباء الحمقى يؤيدون قولها .

تبدّلت ملامحه ، وهو يقول فى غيظ :

ــ ولكننى واثق من أنها تخدعنى .. شعور قوى فى أعماق يؤكد لى ذلك .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم قال (إيفانوف) ، وهو ينظر فى ساعته :

ــ لقد انتصف الليل ، سأعود إلى منزلى .

نهض (ياكوف) ، وقال :

ــ حسنًا .. أعتقد أننى أحتاج أيضًا إلى بعض الراحة .

* * *

فى طريقهما إلى منزليهما المتجاورين ، قال (إيفانوف) :

ــ أما من أخبار عن رجل المخابرات المصرى ؟

زفر (ياكوف) فى ضيق ، وقال :

ــ يميل المسئولون إلى فكرة هروبه خارج البلاد ، ولكننى واثق من أنه مازال هنا ، فى قلب (موسكو) .

رفع (إيفانوف) حاجبيه فى دهشة ، وغمغم :

ــ هل لديك دليل قوى ؟

هزَّ (ياكوف) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ ولاحتى دليل ضعيف ، ولكن تعاملى السابق معه ، يؤكد لى أنه لن يغادر (موسكو) ، ما لم يستعد رفيقته .

هتف (إيفانوف) فى دهشة :

ــ ولكنك أخبرتنى أنه يظنها فى عداد الأموات .

تنهّد (ياكوف) ، وقال :

ــ لقد عرف بشكل أو بآخر .. فلقد أخطأنا نحن ، حينما أرسلنا الفريق الطبّىّ الذى أنقذ حياتها إلى (سيبيريا) أيضًا ، ولا ريب أن أحدهم أخبره بالأمر ، دون أن يدرى .

صمت (إيفانوف) لحظة ، ليستوعب كلمات (ياكوف) ، ثم هزّ كتفيه ، ومطّ شفتيه وهو يقول :

ــ لن يمكنه الوصول إليها بأى حال من الأحوال ، فهى تحت حراسة مشدّدة ، داخل إدارة مكافحة التجسُّس ذاته .

ابتسم (ياكوف) ابتسامة تجمع بين السخرية والمرارة ، وقال :

ــ مع مثل هذا الرجل ، لا يوجد مستحيل أيها الرفيق ، هل نسيت أنه نجح فى الفرار من (سيبيريا) ؟

ساد الصمت بينهما تمامًا بعد هذا التعليق ، حتى توقّفت بهما السيارة أمام منزل (ياكوف) ، فهبط منها فى صمت ، ودون أن يتبادل تحية المساء مع زميله ، وأسرع إلى منزله .. ولم يكد يغلق بابه خلفه ، حتى هرعت إليه ابنته الصغيرة ، وتعلّقت بعنقه وهى تصيح فى مرح :

ــ هل أحضرتَ لى بعض الحلوى يا أبتاه ؟

ربّت على شعرها الأشقر الناعم فى حنان ، ثم التقط من جيب معطفه كيسًا من الحلوى ، ناولها إيّاه وهو يقول فى عاطفة :

ــ مشاكل الدنيا كلها لا يمكن أن تنسينى إيّاه يا (مارتينا) .

التقطت الصغيرة كيس الحلوى فى سعادة ، وقبّلت والدها ، ثم أسرعت إلى أمها تريها الكيس ، كما اعتادت كل مساء ، وابتسمت والدتها وهى تقول لـ (ياكوف) :

ــ ستفسد أسنانها بحلواك هذه .

ابتسم فى هدوء ، وهو يعلّق معطفه فوق المشجب ، ثم توجّه إلى حجرة مكتبه ، فسألته زوجته :

ــ ألن تتناول طعام العشاء ؟

أجاب فى صرامة :

ــ لا شهية لدىّ .. اذهبى أنت والصغيرة إلى الفراش ، وسأعمل أنا بعض الوقت ، ولا أحب أن يزعجنى أحد .

ثم غاب داخل مكتبه ، وأغلق الباب خلفه فى إحكام ، وأضاء الحجرة ..

لم يكد الضوء يغمر حجرة مكتبه ، حتى سمع من خلفه صوتًا هادئًا ، يقول :

ـ كيف حالك يا عزيزى الرفيق الجنرال ؟

استدار (ياكوف) إلى مصدر الصوت فى حركة حادة ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يهتف فى صوت مختنق تملؤه الدهشة :

ـ أنت ؟!

كان أمامه (أدهم صبرى) ، يبتسم فى هدوء ، ويصوِّب إليه مسدسه المصنوع من البلاستيك .

* * *

مرَّت فترة طويلة من الصمت ، وكلاهما يحدِّق فى وجه الآخر ، حتى غمغم (ياكوف) فى حنق :

ـ كيف وصلت إلى هنا ؟.. كيف تجاوزت حرَّاس المبنى ؟

ابتسم (أدهم) وهو يقول فى هدوء :

ـ لم تعد مثل هذه الأمور تثير فى نفسى القلق .

تبادل الاثنان نظرات تفيض بالتحدِّى ، ثم عاد (ياكوف) يسأله :

ـ ماذا تريد ؟

أجابه (أدهم) فى صرامة :

ـ منى .

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وهو يغمغم فى حَيْرة :

ـ (منى) ؟!

قال (أدهم) :

ـ رفيقتى ، التى تحتفظون بها .

ابتسم (ياكوف) فى دهاء ، وقال :

ـ اسمها (منى) إذن ، هذه أول معلومة أحصل عليها بشأنها .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال (أدهم) فى هدوء :

ـ لم أكن أحب أبدًا أن أناصبك العداء أيها الرفيق (ياكوف) ، فأنت رجل ممتاز ، تؤدى عملك فى مهارة وإخلاص ، وأنا أيضًا أؤدى عملى ، ولا توجد خصومات بين دولتينا ، وكل ما أسعى إليه هو أن أعود بزميلتى إلى القاهرة .

قال (ياكوف) فى صرامة :

ـ لقد عملتما ضد الاتحاد السوفيتى ، ونحن لا نغفر هذا .

مطَّ (أدهم) شفتيه ، وقال :

ـ لقد عملنا فى الاتحاد السوفيتى ، وليس ضده

يا صديقى ، ولم نكن نهدف إلى أى مواطن سوفيتى ، أو أى هدف هنا ، وإنما كانت مهمتنا تنحصر فى إلقاء القبض على جاسوس أساء إلى دولتى ، وإعادته إليها ، لتتم محاكمته هناك .

قال (ياكوف) فى غضب :

ـ كان يمكن لدولتكم طلب ذلك رسميًا .

ابتسم (أدهم) ، وقال :

ـ لست أميل إلى الخوض فى المتاهات السياسية يا صديقى .. ولكن لو أننا فعلنا ذلك ، لكنتم ستلقون القبض عليه حقًا ، ولكنكم ستحتفظون به هنا إلى الأبد ، وسيتعارض هذا مع حاجتنا إلى المعلومات التى لديه .

لم يحر (ياكوف) جوابًا عند هذه النقطة ، فقد كان يعلم أن (أدهم) محق ، ولكنه عاد يقول فى عناد وصرامة :

ـ لا يمكننى أن أسلمك رفيقتك ، ولن يمكنك الوصول إلى مكانها قط .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ـ إننى أعلم أين هى ، وكيف يمكننى استعادتها .

هتف (ياكوف) فى حزم :

ـ أتحداك .

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وأطلّ من عينيه بريق مخيف ، وهو يقول :

ـ حسنًا أيها الرفيق .. إنكم تحتفظون بها فى القسم الطبّى ، التابع لإدارة مكافحة التجسُّس ، وهو المبنى الصغير ، المكوَّن من طابقين ، إلى يسار مدخل الإدارة ، ويرأسه الجنرال طيب ، (رومانوف) ، وهو رجل طويل ، رياضى ، صارم للغاية .

تدلّت فك (ياكوف) السفلية ، أمام هذا السيل من المعلومات السرّية ، الذى يتدفّق من فم (أدهم) ، ولكنه سرعان ما تمالك جأشه ، وقال فى غضب :

ـ حتى وإن كنت تعلم أين هى ، فلن يمكنك الوصول إليها .. ما من أجنبى يمكنه أن يطأ أرض مكتب مكافحة التجسُّس السوفيتى بإرادته .

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال فى برود :

ـ ربما لن أنجح فى ذلك ، ولكن الرفيق الجنرال (ياكوف) سيفعل .

وفى حركة مفاجئة رشيقة ، انقض (أدهم) على (ياكوف) ، ولكمه لكمة صاعقة ، ألقت به أرضًا ، وسلبت منه الوعى .

* * *

٣ ــ الرفيق المزيَّف ..

استيقظت زوجة (ياكوف) فى قلق ، ونظرت فى ساعتها ، فوجدت عقاربها تشير إلى الثانية صباحًا .. فغادرت فراشها ، وتوجَّهت إلى غرفة مكتب زوجها ، فى محاولة لدعوته لبعض النوم ، قبل أن تشرق الشمس .. ولكنها لم تكد تغادر حجرتها ، حتى رأته واقفًا وسط رَدهة المنزل المظلمة ، مرتديًا زِيّه الرسمى ، ويلتقط معطفه من المشجب ، فسألته فى قلق :

ــ إلى أين يا (ياكوف) ؟

لم تلمح ملامحه جيِّدًا وسط الظلام ، ولكنه أجابها فى خشونة :

ــ هناك عمل عاجل يحتاج إلىَّ فى الإدارة .

بدت لها لهجته عجيبة ، ولكنها ازدردت لُعَابها ، وعادت تسأله فى استسلام :

ــ هل ستتغيَّب كثيرًا ؟

ارتدى معطفه ، وهو يقول فى صرامة :

ــ ربَّما .

ثم فتح باب المنزل ، وسألها :

ــ هل نامت (مارتينا) ؟

أجابته فى دهشة :

ــ بالطبع .. إنها الثانية صباحًا .

لوَّح لها بكفِّه ، على نحو لم تعتده من قبل ، وأغلق الباب خلفه ، ثم أسرع إلى سيارته ، وأدار محرِّكها ، وانطلق بها مبتعدًا .. ومن خلف نافذة منزله ، أطلَّت زوجته فى مزيج من القلق والحَيْرة ، ثم غمغمتْ فى شحوب :

ــ عجبًا !!.. إنه يبدو مختلفًا تمامًا هذه الليلة .

* * *

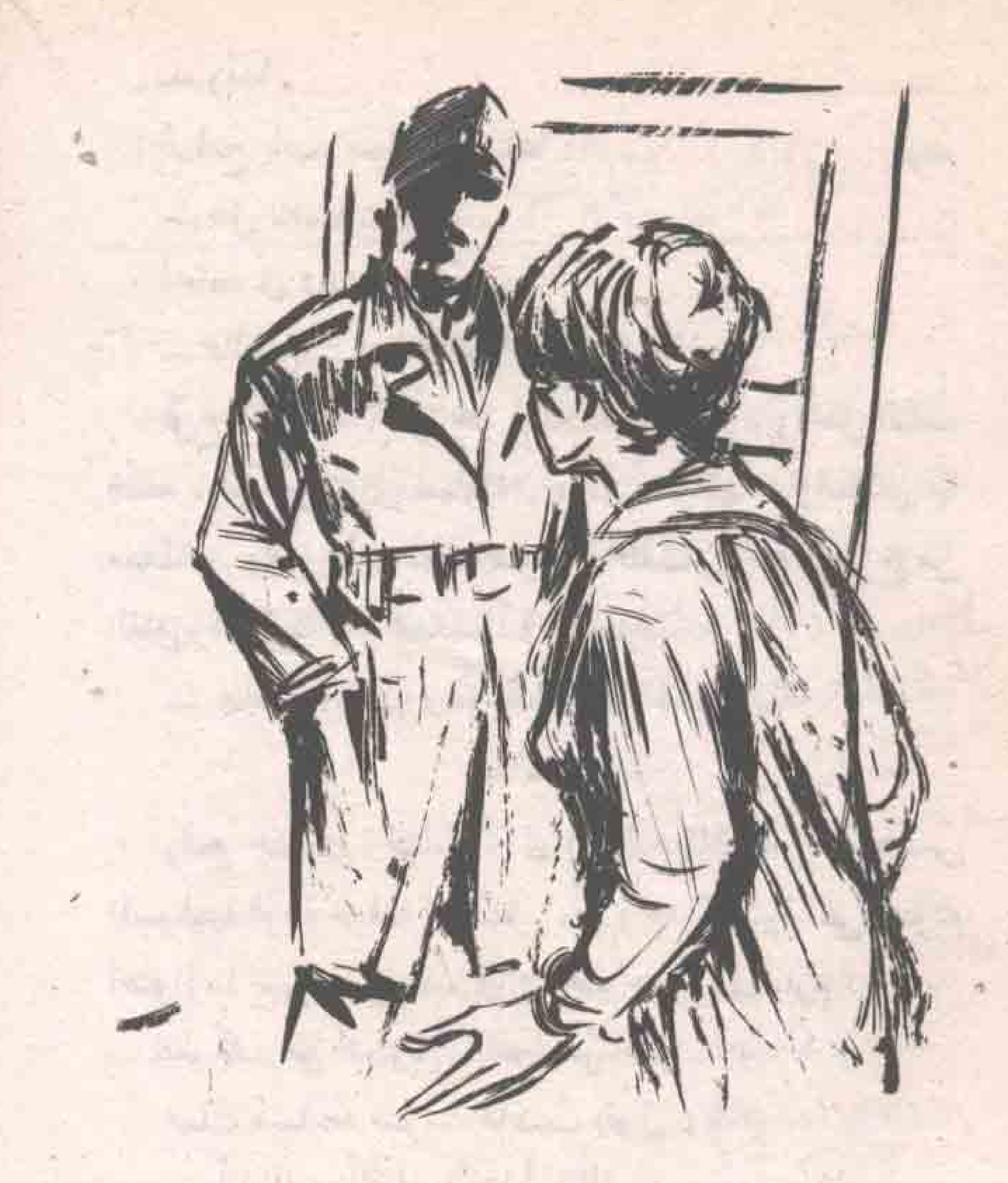
رفع جندى الحراسة ، فى إدارة مكافحة التجسُّس السوفيتية فوَّهة مدفعه الرشَّاش ، فى وجه السيارة التى غمرته أضواؤها المبهرة ، وهتف فى صوت جهورى صارم :

ــ قِفْ من أنت ؟.. كلمة سرّ الليل .

صكَّ مسامعه صوت غاضب يقول :

ــ أنا الذى ألقَّنك إيَّاها أيها الغبىّ .

ميَّز الجندى وجه الرجل ، الذى هبط من السيارة ، وقرن



ثم فتح باب المنزل ، وسألها :

ــ هل نامت (مارتينا) ؟

ملامحه بصوته المميِّز ، فأسرع يخفض فوَّهة مدفعه الرشَّاش ، ، ويرفع يده بالتحيَّة العسكرية ، قائلاً فى احترام :

ــ طاب مساؤك يا سيِّدى الرفيق الجنرال (ياكوف) ، معذرة ، فلم أتوقَّع ....

اقترب منه (ياكوف) ، وحَدَجه بنظرة قاسية صارمة ، وهو يقاطعه قائلاً :

ــ لم تتوقَّع ماذا أيها الرفيق الجندى ؟.. إن واجبى يحتِّم علىَّ أن أفاجئكم بزيارة ليلية من آن إلى آخر .

ارتجف الجندىّ ، وهو يتخذ وقفة عسكرية ثابتة ، على حين عَبَر (ياكوف) بوابة المبنى بخطوات واسعة ، وسار نحو الجناح الطبّى ، وصاح فى وجه حارسه ، وهو يعبُر بابه :

ــ أيقظ الجنرال (رومانوف) ، واطلب منه أن يلحق بى فى حجرة الفتاة المصرية .

أسرع الحارس يطيع الأمر ، على حين أشار (ياكوف) إلى حارس آخر فى غطرسة ، وقال :

ــ تقدَّمنى إلى حجرتها أيها الجندى .

تحرَّك الجندى أمامه فى سرعة ، حتى توقَّف أمام حجرة فى نهاية الممرّ ، فدفع (ياكوف) بابها ، وقال للحارس فى صرامة :

ـــ لا تسمح لأحد بالدخول ، باستثناء الرفيق (رومانوف) .

ثم أغلق الباب خلفه ، وأضاء الحجرة ، ووقف لحظة يتأمل (منى) التى بدت كملاك نائم ، وهى ترقد مغمضة العينين ، فوق فراش أبيض يتوسَّط حجرة نظيفة ، أنيقة .. وتبدَّلت ملامح (ياكوف) فى لحظة ، وتلاشت الصرامة من وجهه تمامًا ، وحلَّ محلَّها شعور جارف بالحنان والعاطفة ، وغمغم وهو يتأمَّلها فى ارتياح :

ـــ ها نحن أولاء قد التقينا أخيرًا يا عزيزتى .

* * *

اقترب (أدهم) ، الذى ينتحل شخصية (ياكوف) ، من (منى) فى هدوء ، ووقف يتأمَّلها لحظة ، فى حنان بالغ ، ثم مدَّ أنامله ، وتحسَّس جبينها فى حبٍّ ، ففوجئ بها ترتجف ، وتفتح عينيها على اتساعهما ، وتحدِّق فى وجهه بمزيج من الدهشة والخوف ، ثم هتفت فى عصبيَّة :

ـــ ماذا تريد منِّى ؟

ابتسم (أدهم) فى حنان ، وهمس :

ـــ لا تدعى تلك الملامح تخدعك يا عزيزتى .. إنه أنا .. (أدهم) .

عقدت حاجبيها فى حَيْرة أدهشته ، وغمغمت وكأنها تردِّد اسمًا لم تسمعه من قبل :

ـــ (أدهم) ؟!

أدهشته حَيْرتها ، فأمسك كتفيها فى حنان ، وهمس :

ـــ أنا (أدهم صبرى) يا عزيزتى .. ألم تتعرَّفى صوتى ؟.. ألم تفصح عنِّى نبراتى ؟

اختلط الخوف فى عينيها بمزيج من الحَيْرة والقلق ، وانعكس قلقها على صوت (أدهم) ، وهو يسألها :

ـــ ألا تذكرين هذا الاسم مطلقًا ؟

هزَّت رأسها نفيًا فى حَيْرة ، وغمغمت فى استكانة :

ـــ كفُّوا عن تعذيبى .. بالله عليكم كفُّوا .

اعتدل (أدهم) عاقدًا حاجبيه ، فقد كانت هذه هى المرَّة الأولى ، التى يكتشف فيها أمر فقدانها لذاكرتها ، ولقد حطَّم هذا خُطَّته تمامًا .. فقد كان يعتمد على تعاونها التام ، أما والحال هكذا ، فهو يحتاج إلى إقناعها بهدفه أولاً ..

مال بوجهه نحوها ، وآلمه أن ابتعدت عنه بوجهها فى خوف ، ولكنه كبت مشاعره كعادته ، وقال فى حنان صارم :

مال بوجهه نحوها ، وآلمه أن ابتعدت عنه بوجهها ..

— حسنًا .. دَعِينا من أمر ذاكرتك الآن ، واستمعى إلىَّ جيِّدًا .. إن الهدف من قدومى إلى هنا هو ....

بتر عبارته فجأة ، واستعارت ملامحه صرامة (ياكوف) ، وانتصب واقفًا ، وهو يعقد كفَّيه خلف ظهره ، حينما سمع صوت رتاج الباب وهو يفتح ، وكانت (منى) تتطلَّع إليه فى دهشة ، عندما ظهر الرفيق (رومانوف) أمام الباب ، وابتسم وهو يقول :

— مرحبًا أيها الرفيق (ياكوف) .. ما الجديد الذى دفعك إلى مثل هذه الزيارة الليليَّة المفاجئة ؟

عقد (أدهم) حاجبيه ، وقال فى صرامة ، مقلِّدًا صوت (ياكوف) ، ولهجته :

— لقد طال تعاملكم مع هذه الفتاة ، دون أن نصل إلى نتائج تستحق كل هذا الوقت الضائع .

عقد (رومانوف) حاجبيه بدوره ، وقال فى غضب :

— هذه أمور طبِّية محضة أيها الرفيق (ياكوف) ، وهى من صميم تخصُّصى ، ولن أسمح لك بـ .....

بتر عبارته بغتة ، حينما غمغمت (منى) فى ذهول :

— لست أفهم شيئًا .. لست أفهم شيئًا .

ثم استدارت إلى (أدهم) ، وهتفت فى حَيْرة :

— لماذا يخاطبك باسم (ياكوف) ؟.. ألم تتحدَّث إلىَّ منذ لحظات بالعربية ، وأخبرتنى أنك تدعى (أدهم صبرى) ؟.. من تكون حقًّا ؟.. من أنت ؟.. وماذا تفعلون بى ؟

كانت تتحدَّث إليه باللغة العربية ، والتى لا يعى منها (رومانوف) حرفًا واحدًا ، ولكن ذكر (أدهم صبرى) جعله يحدِّق فى وجه هذا الأخير بذهول ، ثم أسرعت يده إلى مسدَّسه ، وهتف فى صوت مختنق :

— يا للشيطان !!.. أنت لست (ياكوف) .. أنت مزيَّف .. مزيَّف .

* * *

٤ ـــ الصِّراع ..

استيقظت زوجة الرفيق (ياكوف) فزعة ، على صوت جلبة ، خُيِّل إليها أنها تنبعث من حجرة مكتب زوجها .. فأسرعت إلى هناك ، وألصقت أذنها بباب المكتب ، ولكن الجلبة كانت أعلى من أن تحتاج إلى إنصات خاص ، ولقد صحبتها همهمة ساخطة ، مما أثار رجفة فزع فى جسد الزوجة ، فطرقت الباب فى تردُّد ، وقالت :

ـــ (ياكوف) .. هل عدت إلى هنا ؟

أجابها هتاف مختنق ، وصوت سقـــوط جسم ما على الأرض .. فاستجمعت شجاعتها ، ودفعت باب المكتب ، وأسرعت تنير الحجرة .. ولم تكد تفعل حتى انبعثت من أعماقها شهقة قوية ، وهتفت فى ذُعر :

ـــ (ياكوف) !! من فعل بك هذا ؟

كان زوجها يرقد على أرض الحجرة ، مُوثَقَ اليديـــن والقدمين ، مكمَّم الفم ، يصارع فى شراسة للتخلُّص من قيوده ، فأسرعت إليه فى لهفة ، ونزعت كمامته وهى تهتف :

ـــ من فعل بك ذلك ؟

استنشق (ياكوف) الهواء فى نهَم ، ثم صاح فى غضب :

ـــ إنه ذلك الشيطان المصرى اللعين !!

سألته فى توتُّر ، وهى تحل قيوده بأصابع مرتجفة :

ـــ أى شيطان مصرى ؟

انتزع معصميه من القيود ، وأسرع يحلّ وَثاق قدميه ، وهو يقول فى حنَق :

ـــ لقد أفقدنى وعيى ، ولا ريب أنه ينتحل شخصيتى الآن ، فهو شيطان فى التنكُّر .

ثم قفز واقفًا على قدميه ، وتناول سمّاعة الهاتف ، وصاح وهو يدير قرصه :

ـــ ولكنه لا يعرف كلمة سرّ الليل ، وسأجعل هذه المعلومة الصغيرة تُودِى به إلى حتفه .

* * *

كان حارس إدارة مكافحة التجسُّس السوفيتية يقف فى ثبات ، حينما أسرع إليه ضابط الأمن فى الإدارة ، وهتف به فى انفعال :

ـــ هل جاء الرفيق (ياكوف) إلى هنا ؟

أجابه الجندى ، وهو يشير إلى سيارة (ياكوف) :

ـــ إنه بالداخل أيها الرفيق الضابط ، وها هى ذى سيارته ....

قاطعه الضابط فى صرامة :
— لا تسمح له بالخروج ، إنه شخص مُزَيَّف .
اتسعت عينا الجندى ذهولًا ، وغمغم :
— ولكن ؟!...
أراد أن يقول أن الوجه والصوت والسيارة تؤكد أنه (ياكوف) الحقيقى ، ولكن الضابط قاطعه فى صرامة :
— نفِّذ الأوامر فحسب أيها الجندى .
ثم أسرع إلى الجناح الطبىّ ، فهزَّ الجندى كتفيه ، وقال :
— حسنًا سأنفِّذ الأوامر فحسب .
أما ضابط الأمن ، فقد أسرع إلى الطابق الذى فيه حجرة (منى) ، وصاح فى جندىّ الحراسة هناك :
— هل الرفيق (ياكوف) هنا ؟
اعتدل الحارس فى وقفته ، وأشار إلى حجرة (منى) ، قائلًا :
— إنه داخل حجرة الفتاة المصرية ، بصحبة الرفيق الجنرال (رومانوف) يا سيِّدى .
افتر ثغر الضابط عن ابتسامة شرسة ، وغمغم :
— هكذا ؟!

ثم انتزع مسدَّسه ، وأشار إلى الجندى ، قائلًا فى صرامة :
— اتبعنى أيها الجندى حاملًا مدفعك الرشاش ، سنلقى القبض عليه هناك .
تطلَّع إليه الجندى فى ذهول ، وغمغم :
— معذرة أيها الرفيق الضابط .. ولكننى لا أحب أن أزج بنفسى فى انقلاب عسكرى .
استشاطت ملامح الضابط غضبًا ، وصاح من بين أسنانه :
— أى انقلاب هذا أيها الأحمق ؟ هذا الذى ينتحل صفة الرفيق (ياكوف) شخص مزيَّف .. ولقد اتصل الرفيق الحقيقى ، ونبَّهنى إلى ذلك .
تردَّد الجندى مرَّة أخرى ، وغمغم :
— ومن أدراك ؟ فقد يكون الحقيقى يا سيِّدى ..
هتف الضابط فى غضب :
— الرفيق (ياكوف) الحقيقى وحده يعرف رقمى السِّرىّ ، واسمى الكودى أيها الغبىّ .
ويبدو أن هذه المعلومات حقًا على درجة بالغة من الخطورة .. فقد اقتنع الجندى تمامًا ، وشهر مدفعه الرشاش ، وتبع الضابط إلى حجرة (منى) ..

لم يطرق الضابط باب الحجرة ، وإنما دفعه ، واندفع معه الجندى إلى الداخل ، شاهرين سلاحيهما .. وهتف الضابط فى صرامة :

ـ سأطلق النار عند ....

بتر عبارته دفعة واحدة ، حينما طالعته عينا (منى) الذاهلتين ، المليئتين بالحَيْرة والدهشة ، وانتقل بصره إلى حيث يرقد جسد الرفيق (رومانوف) ، وسط الحجرة ، وهتف :

ـ يا للشيطان !!.. ماذا حدث هنا ؟

ثم أسرع يحاول إنعاش (رومانوف) ، الذى فتح عينيه فى صعوبة وتلفَّت حوله صائحًا :

ـ أين ذلك الشيطان ؟.. أين ذهب ؟

هتف الضابط :

ـ ماذا حدث بالضبط يا سيِّدى الرفيق الجنرال ؟

نهض (رومانوف) ، ونفض الغبار عن ثيابه ، وقال فى حَنَق :

ـ حينما جئت إلى هذه الحجرة ، كان هناك شخص يشبه تمامًا الرفيق (ياكوف) ، ولكنه لم يكن هو .. لقد عرفت

ذلك من حديثه للفتاة .. فأخرجت مسدسى محاولًا اعتقاله ، إلا أنه تحرَّك فجأة وبسرعة البرق ، وأطاح بمسدسى ، ثم لكمنى ، ولم أدرِ بعدها ماذا حدث .

استدار الضابط إلى (منى) ، وسألها فى خشونة :

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟

لم تنطق بكلمة ، ولكنها أشارت إلى النافذة فى صمت ، وهى تنظر إلى (رومانوف) فى حَيْرة ، فهتف هذا الأخير :

ـ فهمت .. لاريب أنه فرَّ من النافذة .

ثم التفت إلى جندى الحراسة ، وصاح فى صرامة :

ـ ضع حراسة مشدَّدة على هذه الحجرة ، وأمام نافذتها .. ولا تسمح لسواى بالدخول ، أو الخروج منها .

ثم أشار إلى ضابط الأمن ، وقال :

ـ هيَّا بنا .. هناك الكثير مما يجب علينا أن نفعله الآن .. وسيكون عملنا الأول هو أن نمنع ذلك الشيطان المصرى من مغادرة المكان .

* * *

٥ ـ الشيطان ..

أشعل (ياكوف) سيجارته ، وأخذ ينفث دخانها ، وهو يدور حول مكتبه ، فى إدارة مكافحة التجسُّس ، وعلى مقربة منه جلس (إيفانوف) يتثاءَب ، وينفث دخان سيجارة مماثلة ، على حين ألقى (رومانوف) نظرة على ساعته ، وقال فى ضجر :

ـ إنها الخامسة صباحًا ، ولم يظهر أى أثر بعد لهذا الشيطان .

غمغم (إيفانوف) :

ـ هذا أمر محيِّر حقًّا .

هتف (ياكوف) فى غضب :

ـ ولكن أين ذهب ؟.. جندى الحراسة يؤكد أنه أخبره كلمة السِّر ، وأنه لم يغادر المبنى ، لا هو ولا أى شخص آخر .. ولقد فحصنا أوراق جميع الموجودين هنا ، وفتشنا كل شبر فى الإدارة ، ولم نعثر له على أدنى أثر .

قال (رومانوف) فى حنق :

ـ هل تبخَّر ؟!

ساد الصمت لحظة ، ثم استدار (ياكوف) إلى (رومانوف) ، وسأله :

ـ قُصّ علىَّ مرَّة أخرى ما حدث .

عاد (رومانوف) يقصّ عليه كيف دخل إلى حجرة (منى) ، وكيف تحدَّثت هى إلى (أدهم) فى دهشة ، مما جعله يكشف زيفه ، وكيف انقضَّ عليه (أدهم) ، وأفقده الوعى بسرعة خارقة .. واستمع إليه (ياكوف) فى انتباه ، على الرغم من أنها المرة العاشرة ، التى يطلب منه فيها إخباره بالقصة ذاتها ، ثم غمغم وكأنه يحادث نفسه :

ـ هذا يؤكد إذن أن الفتاة لم تستعد ذاكرتها حقًّا ، وإلَّا فما كشفته على هذا النحو .

عقد (رومانوف) حاجبيه ، وهو يقول فى غضب :

ـ لقد أخبرتك بذلك ألف مرَّة أيها الرفيق .

تطلَّع إليه (ياكوف) بلا انفعال ، ثم غمغم :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نبلغ الكريملين بما حدث(*) .

---

* الكريملين : مقر الحكم السوفيتى

تنحنح (رومانوف) ، وقال :

ـــ لست أؤيد هذه الفكرة أيها الرفيق (ياكوف) .

استدار إليه (ياكوف) ، وسأله فى حدة :

ـــ ولماذا ؟

أجابه (رومانوف) فى هدوء :

ـــ لأنه سيكون من المخجل أن نبلغهم باختفاء جاسوس ، داخل إدارة مكافحة التجسُّس ، دون أن نعثر له على أثر .. سيكون هذا أقرب إلى الكوميديا المبكية .

عقد (ياكوف) حاجبيه فى سخط ، على حين قال (إيفانوف) :

ـــ هذا صحيح .

هتف (ياكوف) فى غضب :

ـــ لابدَّ إذن من العثور عليه .

ساد الصمت لحظة أخرى ، ثم قال (رومانوف) :

ـــ إلى أن يتم هذا ، هناك إجراء طبّى وأمنىّ عاجل ، لابدَّ من اتخاذه أولًا .

سأله (ياكوف) فى عصبية :

ـــ وما هو ؟

أجابه (رومانوف) فى هدوء :

ـــ أن نبعد الفتاة المصرية عن هنا .

تصلَّبت يد (ياكوف) فى طريقها لسيجارته ، على حين حدَّق (إيفانوف) فى وجه (رومانوف) بدهشة ، وتابع هذا الأخير فى هدوء :

ـــ لقد عرف هذا الشيطان مكانها ، ولا ريب أن هذا سيصنع حولها نوعًا من التوتر ، يعُوق علاجها ، ويؤخر عملية شفائها ، واستعادتها لذاكرتها .

خيَّم الصمت طويلًا ، ثم ارتسمت ابتسامة غامضة عجيبة على شفتى (ياكوف) ، وغمغم فى هدوء :

ـــ إذن فهذا هو ما تقترحه .

أجاب (رومانوف) فى هدوء :

ـــ هذا ما أراه صحيحًا .

نفث (ياكوف) دُخان سيجارته فى هدوء وبطء ، ثم خفض عينيه ، وقال :

ـــ لا بأس ، ولكن هناك أمرًا يثير حَيْرتى .

أسرع (إيفانوف) يسأله :

ـــ أى أمر هذا ؟

عقد (ياكوف) كفيّه خلف ظهره ، وأخذ يتحرّك فى الحجرة صامتًا بعض الوقت ، ثم قال دون أن يواجه أيًّا من الرجلين بوجهه :

ــ لقد أثار هروب ذلك الشيطان حَيْرتى منذ البداية .. فالنافذة التى ــ من المفروض أنه ــ هرب منها ، تطلّ مباشرة على فناء الإدارة ، حيث يتواجد دائمًا جنود الحراسة .. ثم إنه من العجيب عدم محاولته اصطحاب الفتاة ، التى خاطر بحياته من أجلها .

غمغم (إيفانوف) :

ــ وماذا يعنى هذا ؟

رفع (ياكوف) عينيه إلى (رومانوف)، وتابع وكأنه لم يسمع (إيفانوف) :

ــ وأنت أمرت رجالك بحراسة الحجرة ، وبتشديد الحراسة على النافذة ، ثم تطلب الآن اصطحاب الفتاة إلى خارج المكان .. كل هذا يثير حَيْرتى أيها الرفيق (رومانوف) .

عقد (رومانوف) حاجبيه فى غضب ، وقال :

ــ أفصح عما تعنيه أيها الرفيق .

رفع (ياكوف) سبّابته أمام وجهه ، وقال وهو يبتسم نفس الابتسامة الغامضة :

ــ أعْنى أن المكان الوحيد ، الذى لم نبحث فيه عن ذلك الشيطان هو حجرة المصرية ؛ لأنك أمرت الجميع بمغادرتها ، وطلبت من الجنود عدم السماح لأى كائن سواك بدخولها .

نهض (إيفانوف) من مقعده ، وغمغم فى توتُّر :

ــ ماذا يعنى هذا ؟

أشار (ياكوف) إلى (رومانوف) ، وقال فى هدوء :

ــ إن ما أعنيه ببساطة يا عزيزى (إيفانوف) ، أن الواقف أمامنا ليس (رومانوف) الحقيقى ، وإنما هو ذلك الشيطان المصرى (أدهم صبرى) .

وفى لمح البصر ، انتزع (رومانوف) مسدّسه ، وصوّبه إلى الرجلين ، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ، بدت مثيرة للدهشة وسط ملامحه الصارمة ، وقال فى هدوء :

ــ أحسنت يا عزيزى (ياكوف) .. أنت حقًّا أكثر الشياطين عبقرية فى علم الاستنتاج .. إن كل كلمة نطقت بها كانت حقيقية .. حقيقية تمامًا .

* * *

٦ ـ الخروج من الجحيم ..

ساد صمت ثقيل عجيب فى حجرة (ياكوف) ، إلى أن قطعه (إيفانوف) فى ذهول :

ـ مستحيل !!

نفث (ياكوف) دُخان سيجارته فى هدوء عجيب ، وهو يتطلّع إلى (أدهم) ، قائلًا :

ـ لقد أخبرتك من قبل ، أنه مع هذا الشيطان لا يوجد المستحيل يا (إيفانوف) .

هتف (إيفانوف) ، ولم يزايله ذهوله بعد :

ـ ولكن الملامح والصوت و ....

اختنقت الكلمات فى حلقه ، فمنعته من الاستمرار ، على حين ابتسم (أدهم) ، وقال :

ـ لقد كانت الفكرة وليدة اللحظة يا صديقى ، لقد كشف (رومانوف) شخصيتى ، فاضطررت لمهاجمته .. ولمّا كنت أتوقّع وصول (ياكوف) الأصلى فى أيّة لحظة ، أسرعت

بعمل قناع يحمل وجه (رومانوف) ، وانتحلت شخصيته ، ووضعت (رومانوف) فى صوان حجرة (منى) ، ولن يستعيد وعيه قبل ساعة على الأقل .. ثم خدعت ضابط الأمن بقصة ملفّقة ، تحمل الكثير من الحقيقة ، وأمرت بإغلاق الحجرة ، وعدم السماح لأحد بدخولها ، حتى لا يكشف أحد وجود (رومانوف) الفاقد الوعى ، إلا بعد اصطحابى (منى) إلى الخارج و ....

ضحك (ياكوف) فجأة ، وقاطع (أدهم) قائلًا :

ـ كم أتمنّى لو أنك واحد منّا أيها المصرى .

نظر إليه (إيفانوف) فى دهشة ، على حين استطرد هو ، دون أن يرفع عينيه عن (أدهم) :

ـ إننى أحترم العباقرة دائمًا فى مجالنا هذا ، وأعلم جيّدًا أن الظروف قد تضطر بعضنا للمصادمة مع البعض الآخر ، وفى هذه الحالة يسعى كل منّا للنصر والتفوّق ، وهذه هى قواعد اللّعبة فى عالمنا .

نفث دُخان سيجارته مرّة أخرى ، وعاد يتابع :

ـ قد نتحارب طويلًا ، ولكن حربنا دائمًا تكون حربًا نظيفة .. فكل منا يسعى من أجل وطنه ، ولكن قواعد اللّعبة قد تضطرنا للتخلّى عن هذه النظافة من أجل النصر

سأله (أدهم) فى برود :

ــ ما الذى تهدف إليه من وراء هذه المحاضرة الطويلة ؟

ابتسم (ياكوف) ، وقال :

ــ أريد أن أقول إننى قد كشفت خدعتك منذ ساعة على الأقل ، ولكننى كنت أنتظر منك أن تقع فى هذا الخطإ ، وتطلب الحصول على الفتاة بأيَّة حجة كانت ، ولكن فترة الانتظار هذه لم تضع عبثًا .

وبرقت عيناه ببريق شيطانى ، وهو يردف قائلًا :

ــ لقد اكتسبت خبرة كافية ، من صراعاتى الطويلة معك أيها الشيطان .. وأصبحت لدىَّ القدرة على استنتاج خطواتك القادمة ، وأساليبك الشيطانية المعقَّدة .. وحينما كشفت لُعبتك ، طلبت من ضابط الأمن إحاطة حجرة مكتبى بالجنود ، وإلقاء القبض عليك فور خروجك من هنا ، ما لم أصحبك أنا ، أو (إيفانوف) .. وطلبت من جنود العاصمة إحاطة السفارة المصرية ، وعدم السماح لأى كائن من كان بدخولها ، أو الخروج منها ، تحت ادعاء وجود قنبلة فى المكان .. وهكذا تجد نفسك بين شقَّى الرُّحى .. فالخروج من الإدارة أصبح مستحيلًا ، وحتى لو نجحت فيه ، فستجد كل

الطرق مسدودة أمامك ، ولن يمكنك العودة إلى السفارة .. كما لن يمكنك عبور أى من حدود الاتحاد السوفيتى .. فلقد ضاعفت الحراسة على الحدود ثلاث مرات ، ولن يمكنك عبور نقطة واحدة من نقاط الحدود ، دون تصريح خاص منِّى .

انعقد حاجبا (أدهم) فى غضب ، على حين أطلق (ياكوف) ضحكة ساخرة قصيرة ، وقال :

ــ لقد وقعت أخيرًا أيها الشيطان المصرى ، ولن يمكنك الخروج من هذا الجحيم قط .

* * *

صمت عجيب ذلك الذى ساد فى الحجرة ، فى الدقيقة التى تلت حديث (ياكوف) ..

(ياكوف) كان يحدِّق فى وجه (أدهم) فى ظفر ، وثقة ..

(إيفانوف) كان يحاول استيعاب هذا السَّيل من الألغاز ، والاستنتاجات ، الذى انهال عليه ..

أمَّا (أدهم) فقد نمَّت ملامحه عن تفكير عميق ، ثم لم يلبث أن قطع الصمت ، قائلًا فى هدوء :

ــ خُطَّة رائعة أيها الرفيق (ياكوف) ، ولكنها تحوى ثغرة واضحة كالعادة .

هتف (ياكوف) فى حِدَّة :

ـ أتحدَّاك .

ابتسم (أدهم) ، وقال :

ـ إننى أقبل التحدِّى يا عزيزى (ياكوف) ، ولكن تذكَّر أن (رومانوف) وحده هو الممنوع من مغادرة مكتبك .

ابتسم (ياكوف) فى سخرية ، وقال :

ـ لا توجد قوة فى الأرض ، يمكنها إجبارى أنا ، أو (إيفانوف) على معاونتك .

قال (أدهم) فى برود :

ـ لن أطلب معاونة أحدكما أيها الرفيق ، ولكنك ستعاوننى دون أن تدرى .

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى عصبيَّة :

ـ مستحيل !!

وفى هدوء شديد ، نزع (أدهم) القناع الذى يحمل ملامح (رومانوف) عن وجهه ، فتراجع (ياكوف) و (إيفانوف) فى ذهول ، فقد كانت ملامح أدهم تحت القناع ، تحمل وجه (ياكوف) تمامًا ..

احتبست الكلمات فى حلق (إيفانوف) من شدة الذهول ، على حين غمغم (ياكوف) :

ـ هذا مستحيل !!

قال (أدهم) فى برود :

ـ كنت أتوقَّع أن أحتاج إلى ملامحك مرَّة أخرى ، فاحتفظت بها و ....

وفجأة .. انقضَّ (ياكوف) على (أدهم) ، وهو يهتف :

ـ لن تهزمنى مرَّة أخرى .. لن تفعل .

وفى توافق عجيب ، انقضَّ (إيفانوف) بدوره على (أدهم) ، وقرَّر السوفيتيان هزيمة (رجل المستحيل) هذه المرَّة مهما كان الثمن .

* * *

من الضرورى أن نذكر أن رجال مكتب مكافحة التجسُّس السوفيتى ، يتلقَّون تدريبات رفيعة المستوى ، تجعل من الواحد منهم مقاتلًا ، لا يشق له غبار ، ويدعى مدربوهم أن الرجل الواحد قادر على هزيمة ستة رجال أشداء بذراعيه العاريتين ..



قال (أدهم) فى برود :

ـــ كنت أتوقع أن أحتاج إلى ملامحك ، مرة أخرى ، فاحتفظت بها ..

ولقد كان (أدهم) يواجه اثنين منهما ..

وكان الموقف حقًّا عسيرًا ..

فى قتال (أدهم) السابق مع هؤلاء الرجال ، كان يعتمد على ما يسمى بالحرب الخاطفة ، والهجوم المباغت .. أما هذه المرَّة فقد كانا هما البادئين ..

كان (أدهم) يمسك مسدَّسه ، ويمكنه ببساطة متناهية إطلاق النار عليهما ، ولكنه لم يفعل .. ولو أنه فعل .. لو أنه أطلق النار على رجلين أعزلين من السلاح ، ما كان هو (أدهم صبرى) الذى نعرفه ..

لقد غاص (أدهم) إلى أسفل ، متفاديًا لكمة (ياكوف) ، ثم مال يسارًا متجنبًا ضربة (إيفانوف) ، وانتصب واقفًا على حين غرَّة ، وهوَى على فكِّ (إيفانوف) بلكمة ساحقة ، ثم أعقبها بأخرى فى معدة هذا الأخير ، ودار على عقبيه كراقص باليه محترف ، وركل (ياكوف) فى أنفه ، ثم هوَى على فكِّه بلكمة من يسراه ، تبعتها ثانية يمناه ، على عنق (ياكوف) .. وانتهى الصراع .

وقف (أدهم) لحظة يتأمَّل الرجلين ، اللذين فقدا

وعيهما ، وحرّك رأسه فى أسف ، ثم رفع عينيه إلى الحبال المدلاة من ستائر النافذة ، وغمغم :

ــ يؤسفنى أننى مخلوق من نوع غير قابل للاستسلام يا عزيزى (ياكوف) ، ولابدّ لى من أن أحاول ، والله وحده يعلم إن كان قد قدّر لى الخروج من هذا الجحيم الثلجى أم لا ؟

* * *



٧ ــ نار بلا دُخان ..

طرق ضابط الأمن باب مكتب (ياكوف) ، وانتظر لحظة حتى رأى وجه هذا الأخير أمام الباب ، فهتف فى انفعال :

ــ لقد كانت نظريتك سليمة يا سيّدى .. لقد عثرنا على الرفيق (رومانوف) الأصل مقيّدًا فى صوان حجرة الأسيرة المصرية .

أدهشه أن سأله (ياكوف) فى برود :

ــ أين هو ؟

صاح ضابط الأمن :

ــ فى حجرته يا سيّدى .. وهو ثائر للغاية ، ويريد رؤية ذلك المحتال الشيطان ، الذى انتحل شخصيته .

خطا (ياكوف) خارج حجرته ، وأغلق بابها خلفه فى إحكام ، وقال :

ــ لقد ألقينا القبض عليه فى الداخل ، والرفيق (إيفانوف) يقوم باستجوابه شخصيًا .. قِفْ بنفسك لحراسة المكان ، ولا تسمح لأى مخلوق بالدخول ، حتى أعود إليك .

غمغم ضابط الأمن فى دهشة .

ـ أحرسه بنفسى ؟!

ربّت (ياكوف) على كتفه ، وقال فى صرامة :

ـ أنت الوحيد الذى أمنحه ثقتى الآن أيها الرفيق .

انتفخت أوداج ضابط الأمن ، ورفع يده بالتحية العسكرية ، وهو يقول فى حماس :

ـ إننى أفخر بذلك يا سيّدى .

ثم انتزع مسدّسه ، ورسم على ملامحه الصرامة ، ووقف أمام الباب كالطّود .. فابتسم (ياكوف) ، وقال :

ـ حسنًا فعلت أيها الرفيق .

ازداد شعور الفخر فى نفس ضابط الأمن ، ولكنه لم يلمح تلك الابتسامة الساخرة ، التى ارتسمت على وجه (ياكوف) ، بعد أن استدار ليبتعد فى خطوات سريعة ..

لم يكن (ياكوف) هذا سوى (أدهم) متنكّرًا ، ولقد توجّه من فوره إلى حجرة (منى) وأشار إلى جنود الحراسة ، قائلًا :

ـ أحضروا هذه المصرية إلى سيارتى .

ثم أسرع إلى سيارته مرفوع الرأس فى غطرسة ، وجلس فى مقعدها الخلفى يدخّن واحدة من السجائر السوفيتية ،

على حين أدار السائق محرّك السيارة ، وانتظر الأمر بالانطلاق ..

مرّت لحظات ثقيلة ، قبل أن تصل (منى) ، وحولها ثلاثة من جنود الحراسة ، احتل أحدهم المقعد المجاور للسائق ، على حين دفعها الآخران إلى جوار (أدهم) ، على المقعد الخلفى ، وهنا قال (أدهم) للسائق فى لهجة آمرة :

ـ إلى الكريملين .

انطلق السائق بالسيارة على الفور ، وعَبَر بوابة المبنى ، ثم اندفع فى الطريق إلى قلب (موسكو) .. ظلت (منى) ساكنة بعض الوقت ، وهى تنقل بصرها ما بين الطريق والسائق ، والرجل الجالس إلى جوارها ، ثم غمغمت فى حَيْرة :

ـ ماذا يريد منّى رجال الكريملين ؟

ابتسم (أدهم) ، وقال بالعربية :

ـ يريدون إرسالك إلى موطنك .

اتسعت عيناها فى ذهول ، وغمغمت وهى تتراجع فى خوف :

ـ من أنت ؟

• وفجأة .. ارتفع مسدس (أدهم) من جيب معطفه ، واتجهت فوّهته إلى السائق ، والجندى الذى يجلس إلى جواره ، واستعاد (أدهم) صوته الأصلى ، وهو يقول فى لهجة آمرة ساخرة :

ـ حسنًا .. لقد انتهت الرحلة هنا بالنسبة إليكما .

أوقف السائق السيارة فى حِدّة ، وصاح فى إحباط :

ـ يا للشيطان !!

على حين سقطت فك الجندى السفلى ، وأفلت مدفعه الرشاش من يده ، ورفع يديه عالية ، حتى أن كفيّه ارتطمتا بسقف السيارة ، فقال (أدهم) فى هدوء :

ـ والآن .. اهبطا من السيارة ، وانطلقا عَدْوًا بأقصى سرعة .

أطاع الرجلان الأمر ، وتسابقا مع الريح فى عَدْوِهما ، حتى ابتعدا تمامًا ، فغادر (أدهم) السيارة وهو يقول :

ـ انتقلى إلى المقعد الأمامى يا عزيزتى ، فما زال أمامنا طريق طويل ، حتى نعبُر أبواب هذا الجحيم .

غادرت (منى) المقعد الخلفى ، وانتقلت إلى المقعد الأمامى فى استسلام ، وأخذت تحدّق فى وجه (أدهم) بحَيْرة بالغة ، وهو يدير محرّك السيارة ، ثم سألته :

ـ مَنْ أنت ؟.. ولماذا تفعل كل هذا من أجلى ؟

أوقف (أدهم) محرّك السيارة ، ومال نحوها قائلًا :

ـ حاولى أن تتذكّرى يا عزيزتى .. أنا (أدهم صبرى) ، زميل عملك فى المخابرات المصرية .. ولقد خضنا معًا عشرات المغامرات ، فى معظم دول العالم ، وواجهنا الموت أكثر من مرة ، مع (المافيا) ، و (سكوربيون) ، و (الموساد) .. وتحدّينا عباقرة عالم المخابرات ، مثل (حاييم شيمون) ، (سونيا جراهام) و (جيمس براند) و (أدوين مارشال) .. وطاردتنا سلطات الدول العظمى كلها .. ألا تذكرين شيئًا من هذا ؟

لم تحرّك ساكنًا ، وهى تتأمّله فى حَيْرة وشرود ..

كان جزء من عقلها يجد صدًى لهذه الأسماء والكلمات ، على حين كان الجزء الآخر يصنع ما يشبه الضباب حولها ..

كانت تشعر بنار تستعر فى أعماق عقلها ..

نار بلا دُخان ..

نار تبعث فى جسدها رجفة الثلج ..

وشعر (أدهم) بما تعانيه ، فتنهّد فى حَيْرة ، وأسند ظهره إلى مسند مقعده ، وأغلق عينيه ..

لم يكن يدرى ما ينبغى أن يفعله ، لمعاونتها على استعادة ذاكرتها ، ولكنه كان مستعدًا لدفع نصف عمره من أجل ذلك .. فنجاحهما فى اجتياز لهيب الثلج هذا يحتاج إلى عقلها ، وإلى ذاكرتها واستجابتها ، وإلا فسيزداد الأمر صعوبة ، وسيصبح حقًا مستحيلًا ..

أورثته حَيْرَته شعورًا بالاختناق ، وشعر أنه لم يعد يحتمل ملامح (ياكوف) التى يحملها ، فمدَّ يده فى هدوء ، وانتزع من فوق وجهه القناع ، الذى يحمل وجه (ياكوف) ..

لم يكد يفعل ، حتى اتسعت عينا (منى) ، وتراجعت فى ذهول ..

مرق وجه (أدهم) الوسيم من عينيها ، وملأ قلبها ، ثم تصاعد مع دمائها إلى رأسها ، واختلط بنيران حَيْرَتها ، التى قفزت إلى لسانها ، فوجدت نفسها تهتف فى حرارة :

— (أدهم) ؟!!.. يا إلهى !! أنت على قيد الحياة ؟.. أنت حىٌّ ؟

التمعت عينا (أدهم) ببريق اللهفة والأمل ، على حين صاحت (منى) وهى تتلفَّت حولها فى حَيْرة :

— أين نحن ؟.. هل نجحنا فى الفرار من (ياكوف) ؟..

عجبًا !!.. لقد انخفضت برودة الجو كثيرًا ، ولم تعد الثلوج تملأ كل شىء .

انطلقت من صدر (أدهم) زفرة قويَّة ، تشفَّت عن ارتياحه وظفره ، ثم التقط كفَّ (منى) الرقيقة بين راحتيه ، وهتف فى حرارة وحنان :

— لقد التهبت الثلوج وذابت يا (منى) .. وأشرقت شمس الأمل من جديد .

ازدادت حَيْرتها ، وهى تقول :

— ماذا حدث ؟.. هناك شىء لا أفهمه .

أطلق ضحكة أفرغ بها كل انفعالاته ، ثم عاد يدير محرِّك السيارة ، قائلًا :

— سأشرح لك كل شىء يا عزيزتى .. أمَّا الآن فقد انبعثت فى عروقى قوة جديدة ، قوة كافية لإطفاء نيران الجحيم كله .. وبلا دُخان .

* * *

٨ ــ بلا أمل ..

وقف ضابط الأمن فى إدارة مكافحة التجسُّس يرتجف ، وهو يقول محاولًا الدفاع عن نفسه :

ــ أى إنسان كان سيقع فى الفخ نفسه أيها الرفيـــق الجنرال .. لقد كان هذا الشيطان يشبهك تمامًا فى صوتـه ، ونبراته ، وملامحه ، وحتى أسلوبه .. أى مخلوق كان سيخدع فيه ، حتى زوجتك نفسها .

تذكَّر (ياكوف) كيف أن زوجته لم تكشف خداع (أدهم) ، وهو ينتحل شخصيته ، فعقد حاجبيه ، وغمغم فى غضب :

ــ لقد خدعنا جميعًا .

ثم ضرب سطح مكتبه بقبضته ، وقال فى حَنَق :

ــ ولكن أين ذهب ؟

وقلَّب كفَّيه فى حَيْرة ، وهو يستطرد :

ــ لقد أغلقنا البلاد تمامًا ، فكل من يسير فى الشوارع يتم

تفتيشه فى دقَّة ، وأخذ بصمات أصابعه .. وتطبَّق هذه الإجراءات بشكل أكثر صرامة فى المطارات والموانى ، وحول السفارة المصرية ، ولا أثر لهذا الشيطان .

هزَّ (إيفانوف) رأسه فى حَيْرة بالغة ، وقال :

ــ لقد عثر رجالنا على السيارة خاوية ، وهم يؤكدون أن أحدًا لم يغادر السفارة المصرية قط منذ البارحة ، وكل الحدود مغلقة فى حزم ، وهو يبدو وكأنه قد تبخَّر مع زميلته .

غمغم (ياكوف) فى حَنَق :

ــ إنهما هنا .

رفع (إيفانوف) عينيه إليه فى دهشة وتساؤل ، فعاد يدق سطح مكتبه بقبضته ، وهو يردف فى غضب :

ــ إنهما هنا فى (موسكو) ، وأقسم على ذلك .

غمغم (إيفانوف) فى حَيْرة :

ــ ولكن أين ؟

رفع (ياكوف) عينيه إلى سقف الحجرة ، وقال فى حَنَق :

ــ حتى أعلم يا صديقى .. لن يهدأ لى بال .

* * *

فى واحد من أحياء (موسكو) العريقة ، حيث تكتظ

المناطق بالسكان ، وفى منزل صغير بسيط ، رفع (قدرى) كوبًا من الشاى إلى شفتيه ، ورشف كمية كبيرة منه جرعة واحدة ، ثم ابتسم وهو يقول فى مرح :

ـ لهذا كنت أتمنّى عودتك إلينا يا (منى) فأنت تصنعين أفضل كوب شاى فى العالم .

ضحكت (منى) ، وهى تقول :

ـ ماذا ستفعل إذن ، حينما تتذوّق وجبة المكرونة التى أعددتها لك .

اتسعت عينا (قدرى) ، واهتزّ جسده البدين فى سعادة ، وهو يقول :

ـ يا إلهى !!.. سأطلب ترقيتك عندما نعود إلى القاهرة .

لم يكد ينطق بعبارته هذه ، حتى تولّاه الندم ، فقد انطفأ بريق المرح فجأة من عينى (منى) ، واكتست ملامحها بالحزن وخيبة الأمل ، على حين تبادل (أدهم) و (حازم) نظرات ذات معنى ، وقال (أدهم) :

ـ يبدو أن عودتنا إلى القاهرة ستتأخر بعض الوقت يا (قدرى) .. فلقد أثار هروبنا جنون السوفيت ، حتى أنهم لا يريدون السماح لبعوضة بعبور حدودهم .

أومأ (حازم) برأسه موافقًا ، وقال :

ـ إنهم لم يهزمونا بعد .. فأنا و (قدرى) نقيم فى هذا المنزل ، بجنسية يوغوسلافية ، منذ غادرت أنت السفارة خلف (منى) .. ولقد أتيتما أنتما فور هروبكما إلى هنا ، دون أن يراكما أحد ، ولن يفكّر أحدهم فى تفتيش منازل (موسكو) كلها ، واحدًا بعد الآخر .

غمغم (أدهم) فى سخرية :

ـ إذن فقد انتقلنا من سجن إلى سجن .

هزّ (حازم) كتفيه فى حَيْرة ، وقال :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل ؟. كل (روسيا) محاطة برقابة صارمة ، ولا يمكن حتى لرجال الأمن عبور حدودها ، دون خطاب خاص من (ياكوف) .

استدار (أدهم) إلى (قدرى) ، وسأله :

ـ ألا يمكنك تزوير توقيعه ؟

هتف (قدرى) فى استنكار :

ـ هل تسألنى يا (أدهم) ؟!.. إننى أستطيع تزوير توقيع الشيطان نفسه ، ولكننى أحتاج إلى رؤية توقيع واحد على الأقل .

عقد (حازم) حاجبيه ، وقال :

ـ الحصول على توقيع من (ياكوف) أكثر صعوبة من الحصول على توقيع الشيطان نفسه .

تعلّقت عيون الجميع بوجه (أدهم) ، وكأنهم يبحثون عنده عن الحل .. فعقد حاجبيه بدوره ، وشبّك أصابع كفّيه خلف ظهره ، وظهرت على وجهه دلائل التفكير العميق ، ثم رفع رأسه إلى أعلى ، وقال فى هدوء :

ـ أعتقد أن لديَّ وسيلة للحصول على توقيع (ياكوف) ، وتصريح حقيقى منه بعبورنا الحدود .

ارتسمت الدهشة على وجوه الجميع ، وهتفت (منى) :

ـ تصريح منه ؟!.. هل جمح بك الخيال يا (أدهم) ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، فيما خُيِّل إليهم أنه حزن عميق ، ثم أشاح عنهم بوجهه ، وقال :

ـ صديقنا (ياكوف) يؤمن بأن كل الوسائل مباحة للنصر ، فى حرب المخابرات .. ولكننى أعتقد أن رأيه هذا سيتغير كثيرًا ، حينما يذوق طعم هذه الأساليب .

تبادل الثلاثة نظرات حَيْرى ، ثم سأله (حازم) :

ـ ما الذى تنوى أن تفعله بالضبط يا (أدهم) ؟

غمغم دون أن ينظر إليهم :

ـ سأجبره على مخالفة ما يؤمن به ، وسأجعله يعاوننا على الهرب بنفسه .

سألته (منى) فى حَيْرة :

ـ كيف ؟

ساد الصمت لحظة ، ثم غمغم (أدهم) فى أسف :

ـ سأختطف ابنته الوحيدة .. سأختطف (مارتينا) .

* * *



٩ ــ الجريمة ..

عاد الرفيق (ياكوف) إلى منزله فى منتصف الليل ، وقد بلغ الإرهاق منه مبلغه ، وأغلق باب المنزل خلفه ، ثم تحسّس كيس الحلوى فى جيب معطفه ، ودار بعينيه بحثًا عن ابنته ، وقد أدهشه أنها لم تهرع إليه كعادتها كل مساء .. ولمّا طال انتظاره لها ناداها فى صوت هادئ ، ولم يكد يفعل حتى برزت زوجته على باب حجرة ابنته ، شاحبة الوجه ، ذابلة العينين ، ووجهها مبلّل بالدموع ، فارتجف قلب (ياكوف) خوفًا ، وهتف :

ــ ماذا حدث ؟.. أين (مارتينا) ؟

لم تنبس زوجته بحرف واحد ، ولكنها رفعت يدها إليه برسالة ، اختطفها من يدها ، وفضّها فى لهفة ، ثم شعر بساقيه تعجزان عن حمله ، وهو يقرأ أول سطورها ، فانهار فوق أقرب مقعد إليه ، وعيناه تتابعان الرسالة ، التى تقول كلماتها :

« معذرة أيها العزيز (ياكوف) .. ابنتك (مارتينا) ستبقى ضيفة عندى ، حتى أحصل على تصريح موقّع منك ، لخروجي

وزميلتى من بلادك .. وأعتقد أن هذا سينهى الصراع ، وسيضع حدًّا مريحًا للجميع .. (ا . ص) » .

تبلّلت عينا (ياكوف) بالدموع ، على الرغم من ملامحه الصارمة ، وكانت هذه هى أول مرّة ترى فيها زوجته دموعه ..

كان (ياكوف) صارمًا ، قاسيًا فى كل مايتعلّق بعمله ، ولكنه كان عطوفًا ، حانيًا فى كل مايتعلّق بابنته الوحيدة (مارتينا) ..

كانت هى الشيء الوحيد ، الذى مازال يحتفظ له بمشاعر آدمية ، والذى مازال قلبه ينبض من أجله ..

تصلّبت عينا (ياكوف) ، وظلّ صامتًا واجمًا ، حتى هتفت به زوجته :

ــ امنحه مايريد يا (ياكوف) ، ودَعْنا نستعد (مارتينا) .

غمغم فى خشونة :

ــ اصمتى .

صاحت فى غضب :

ــ كلّا يا (ياكوف) .. إننى ألتزم الصمت دائمًا فى كل مايتعلّق بعملك ، ولكننى لن أصمت فيما يخص ابنتنا .

رفع إليها عينين شاردتين ، مبلَّلتين بالدموع ، وغمغم فى استسلام ، لأول مرَّة فى حياته :

ــ إن ما يطلبه منِّى جريمة يا (فولجا) .. جريمة فى حقِّ الوطن .

تفجَّرت من عينيها الدموع ، وهى تقول :

ــ كل ما يعنينى الآن هو ابنتنا يا (ياكوف) .

نهض (ياكوف) من مقعده ، وأخذ يدور فى الحجرة ، وملامحه تشفّ عن حَيْرته ، وقلقه ، وعذابه ، ثم التفت إلى زوجته ، وقال فى هدوء ، لا يعبِّر عما يعتمل فى نفسه :

ــ حسنًا يا (فولجا) .. سنستعيد (مارتينا) .

* * *

اجتمع رجال المخابرات المصرية الثلاثة ، حول مائدة صغيرة ، تتوسط رَدهة المنزل ، الذى يقيمون فيه فى (موسكو) ، وكان الشرود يبدو فى ملامحهم ، حتى بدت (منى) على عتبة إحدى الحجرات ، فالتفت إليها (أدهم) ، وسألها :

ــ هل نامت الصغيرة ؟

أومأت (منى) برأسها إيجابًا ، ثم قالت فى ضيق :

ــ إننى أكره ما نفعل .. إنه يجعلنا أشبه بعصابات (المافيا) .

غمغم (قدرى) :

ــ وأنا أيضًا .

نهض (أدهم) من مقعده ، وسار إلى النافذة صامتًا ، وظلَّ يقف أمامها بعض الوقت ، ثم قال فى هدوء :

ــ إنها وسيلتنا الوحيدة للفرار من هنا .

قالت (منى) :

ــ ربَّما .. ولكننى لا أميل إلى ذلك .

غمغم (أدهم) فى ضيق :

ــ يبدو أننا نتفق جميعًا فى هذا الشعور يا أصدقائى .. فعلى الرغم من قناعتى التامة ، أن هذه هى الفرصة الوحيدة أمامنا ، إلاّ أن بكاء الطفلة يمزِّق مشاعرى ، ويورثنى شعورًا بالنذالة والخِسَّة .

ثم استدار إليهم ، وقال فى حزم :

ــ يبدو أن طبيعتنا تخالف طبيعة رجال المخابرات فى الدول الأخرى يا رفاق .. وأعتقد أننا سنضطر لإعادة الصغيرة ، حتى لا توصم مخابراتنا بهذه الجريمة إلى الأبد .

* * *



إلا أن بكاء الطفلة يمزّق مشاعرى ، ويورثنى شعورًا بالنذالة والخِسة ..

جلس (ياكوف) فى حجرة مكتبه صامتًا ، معتمدًا بذقنه على قبضتيه المضمومتين ، محدّقًا فى كيس الحلوى ، الذى وضعه أمامه فوق المكتب ...

كان يحاول إيجاد مخرج ، من العذاب الذى يحياه ..

كان عليه أن يختار ما بين شيئين إلى قلبه .. وطنه وابنته ..

وكان الاختيار عسيرًا ..

ولكن لا مفرّ منه ..

وأخيرًا .. استقر رأيه على قرار خطير ، مزّق جزءًا كبيرًا من نياط قلبه ، ولكنه اتخذه فى حزم شديد ، وفى صرامة مطلقة ..

وفى هدوء عجيب ، التقط سمّاعة هاتفه ، وأدار رقم

إدارة مكافحة التجسُّس .. ولم يكد يسمع صوت محدّثه من الطرف الآخر ، حتى قال :

ــ صِلْنى بالرفيق (إيڤانوف) .. أنا (ياكوف) .

انتظر حتى جاءه صوت (إيفانوف) ، فقال :

ــ لقد اختطف الشيطان المصرى ابنتى يا (إيفانوف) ، ويطلب تصريح خروج من البلاد ، مقابل إعادتها .

ساد الصمت لحظة ، ثم هتف (إيفانوف) :

ــ وماذا تنوى أن تفعل ؟

أغلق (ياكوف) عينيه ، وكأنه يحاول استجماع شجاعته ، ثم قال فى انفعال :

ــ سأتظاهر بطاعته ، وسنعدّ له فخًا .

صاح (إيفانوف) :

ــ وابنتك أيها الرفيق الجنرال .

سالت دمعة حزينة من عينى (ياكوف) ، وهو يقول فى صرامة :

ــ الوطن أولًا يا (إيفانوف) .

وفجأة . تسلّل إلى أذن (ياكوف) صوت هادئ ، يقول :

ـ إننى أحترم قرارك هذا أيها الرفيق .

أغلق (ياكوف) سمَّاعة الهاتف فى حركة حادَّة ، واستدار إلى مصدر الصوت ، وهنا تفجَّرت فى أعماقه مشاعر شتى .. فهناك كان يقف (أدهم صبرى) ، عاقدًا كفَّيه خلف ظهره ، وإلى جواره وقفت (مارتينا) ، التى هتفت فى سعادة :

ـ أبى !! لقد عدت !!





١٠ ـ فارس من مصر ..

رائعة هى مشاعر الأبوَّة ..

لقد اندفع (ياكوف) نحو ابنته ، واحتضنها فى حنان دافق ، متناسيًا وجود (أدهم) تمامًا ، وحملها إلى مكتبه ، والتقط كيس الحلوى ، ودفعه إلى كفَّيها الصغيرتين ، وهو يهتف :

ـ هاك كيس الحلوى يا (مارتينا) .. إن والدك لا ينساه أبدًا .

التقطت (مارتينا) كيس الحلوى فى فرح ، وضحكت وهى تقول ، مشيرةً إلى (أدهم) :

ـ لقد أحضر لى صديقك هذا كمية ضخمة من الحلوى .. ولكننى كنت أتوق لحلواك هذه يا أبتاه .

رفع (ياكوف) عينيه إلى (أدهم) فى امتنان ، ثم أسرع إلى باب مكتبه ، وهو ينوى مناداة زوجته ، ولكنه فوجئ بها تندفع إلى الحجرة ، وتحتضن ابنتها فى قوة ، وتنهال عليها بالقبلات ، ثم ترفع عينيها إلى (أدهم) ، وتقول فى سعادة ، ودموع الفرح تملأ وجهها :

— شكرًا يا سيِّدى .. شكرًا .

خفض (أدهم) عينيه فى أسف ، وغمغم :

— لم أستطع أن أفعل سوى ذلك يا سيِّدى .

تطلَّع (ياكوف) إلى (أدهم) فى حَيْرة ، وسأله :

— لماذا أعدتها ؟.. لقد كانت فرصتك الوحيدة .

هزَّ (أدهم) كتفيه ، وقال :

— سأجد فرصة أخرى ولا ريب ، ولكنها لن تكون على حساب طفلة صغيرة .

تألَّقت نظرة احترام فى عينى (ياكوف) ، واقترب من (أدهم) ، حتى التقت عيناهما ، ثم قال فى صوت يموج بنبرات الاحترام :

— لقد قرأت وسمعت كثيرًا عن شهامة فرسان العرب ، ولكنها أول مرَّة أواجه فيها موقفًا رائعًا كهذا .

ثم مدَّ يده يصافح (أدهم) ، قائلًا فى قوة :

— أنت فارس حقيقى أيها المصرى .. فارس من مصر .

ابتسم (أدهم) ، وقال :

— وأنت رجل مخلص لوطنك أيها الرفيق (ياكوف) .. وأنا أحترم كل إنسان يخلص لوطنه .

ابتسم (ياكوف) ابتسامة شاحبة ، ثم عقد حاجبيه ، والتفت إلى زوجته ، قائلًا فى حزم :

— خُذِى (مارتينا) ، واتركينا وحدنا يا (فولجا) .

منحت (فولجا) (أدهم) ابتسامة امتنان ، ثم غادرت حجرة المكتب .. وهنا عاد (ياكوف) يلتفت إلى (أدهم) ، قائلًا :

— هل تتوقَّع مقابلًا لإعادتك ابنتى ؟

هزَّ (أدهم) رأسه نفيًا فى هدوء ، وأجاب وهو يبتسم :

— مطلقًا .. بل إننى أتوقَّع منك أن تحاول إلقاء القبض علىَّ الآن .

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

— هذا واجبى .

اتخذ (أدهم) وقفة قتالية ، وأجاب فى هدوء :

— وواجبى أنا يحتِّم علىَّ محاولة الفرار أيها الرفيق .

ظلَّ كلاهما يتطلَّع إلى الآخر لحظة ، ثم أشار (ياكوف) إلى النافذة ، وقال فى هدوء :

— هيَّا إذن .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

— هل تدعونى إلى الفرار ؟
هزَّ (ياكوف) رأسه نفيًا ، وأجاب :
— بل أدعوك إلى المحاولة .
عقد (أدهم) حاجبيه ، وهو يحاول أن يفهم ما تعنيه كلمات (ياكوف) ..

هل يحاول معاونته على الفرار ، تعبيرًا عن امتنانه لاستعادته ابنته ؟..

بدا هذا لـ (أدهم) مستحيلًا .. فهو يخالف طبيعة (ياكوف) الصارمة ، التى دفعته منذ لحظات إلى التضحية بابنته الوحيدة ، من أجل وطنه ..

ولكن (أدهم) قرَّر انتهاز الفرصة ، وتراجع بالفعل نحو النافذة فى حذر .. وقبل أن يصل إليها ، اندفع (إيڤانوف) فجأة إلى الحجرة ، وخلفه خمسة جنود ، صوَّبوا مدافعهم الرشَّاشة إلى (أدهم) ، وابتسم (ياكوف) فى ظفر ، على حين صاح (إيڤانوف) :

— لا تحاول القفز من النافذة أيها الشيطان المصرى .. فهناك كتيبة كاملة من الجنود السوفيت تحيط بالمنزل ، ولديها أوامر صارمة بإطلاق النار ، على كل من يغادره دون صحبتى .. لقد وقعت هذه المرَّة لا محالة .

* * *

تحرَّكت (منى) فى عصبيَّة ، داخل ردهة المنزل السوفيتى الصغير ، وأخذت تنظر من النافذة بين حين وآخر ، فى انتظار عودة رفاقها الثلاثة .. وأخيرًا وصل (قدرى) و (حازم) ، فسألتهما فى توتُّر :

— أين (أدهم) ؟

فتح (قدرى) شفتيه لينطق ، ولكن الانفعال تملَّكه ، فعاد يطبق شفتيه ، وأشاح بوجهه عنها ، على حين قال (حازم) :

— لقد ألقوا القبض عليه .

انهارت فوق مقعد قريب ، وهى تهتف :

— يا إلهى !!

قال (حازم) ، وهو يقاوم انفعاله :

— لقد كنا نراقب منزل (ياكوف) ، كما طلب منَّا (أدهم) .. وقبل أن يغادر هو المنزل ، أحاطت به كتيبة من الجُند .. وبعد لحظات رأينا (إيڤانوف) و (ياكوف) يغادران المنزل ، ومعهما (أدهم) ، تحت حراسة ثُلَّة من الجُند ، بمدافعهم الرشاشة .

جفَّفت (منى) دموعًا سالت على خديها ، وهى تسأل :

ـ إلى أين أخذوه ؟

أجابها (حازم) :

ـ إلى إدارة مكافحة التجسُّس .

أحنت رأسها ، وأخذت تبكى فى صمت ، فنهض (قدرى) من مقعده ، وربَّتَ على كتفيها ، وهو يقول :

ـ لا عليك يا (منى) .. هيَّا أعدِّى حقائبك ، فلابدَّ لنا من أن ننطلق الآن ، حتى يمكننا بلوغ الحدود السوفيتية الفنلندية قبل الفجر .

رفعت رأسها إليه ، وهى تقول فى ألم :

ـ هل نتركه هنا ؟

تنهَّد ، وقال فى ضيق :

ـ ينبغى أن نفعل يا عزيزتى ، ولا تنسَىْ أنها أوامره ، وأن ما حدث حتى الآن يوافق خُطَّته تمامًا .

جفَّفت دموعها ، وهى تقول فى حزن :

ـ نعم .. ما زالت الخُطَّة تسير على النهج الذى وضعه .. ويا لها من خُطَّة !!

* * *

١١ ـ وحدَك ..

جلس (أدهم) هادئًا فى حجرة (ياكوف) ، بإدارة مكافحة التجسُّس ، على حين جلس (إيڤانوف) يتأمَّله فى اهتمام ، ووقف (ياكوف) أمامه يدخِّن واحدة من سجائره ، وكان الصمت هو المسيطر الأول على جوِّ الحجرة ، حتى قال (ياكوف) :

ـ أعتقد أنها النهاية أيها المصرى .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول فى هدوء :

ـ نعم أعتقد ذلك .

ثم رفع عينيه إلى (ياكوف) ، وأردف فى سخرية :

ـ هل كنت تعلم أن هذا سيحدث ؟

أومأ (ياكوف) برأسه موافقًا ، وأجاب :

ـ ليس على هذا النحو بالضبط .. ولكننى كنت واثقًا من أنك ستعود إلى منزلى ، ما دمت لم تحدِّد موعد أو مكان حصولك على التصريح ، فى خطابك الأول .. ثم إن صوتك

كان مسموعًا ولا ريب للرفيق (إيڤانوف) عَبْر الهاتف ، حينما فاجأتنى عودتك ، وأنا أتحدث إليه ، ولقد أغلقت أنا الخط بحركة حادَّة ، كفيلة بإثارة ريبته .. وكنت واثقًا أنه سيهرع إلى منزلى ، مع عدد كافٍ من الجنود ، وأنه لن يترك لك فرصة للفرار هذه المرَّة .

ابتسم (أدهم) ، وقال متهكِّمًا :

ـ أنتم عباقرة يا رجال مكتب مكافحة التجسُّس .

نظر إليه (ياكوف) فى صمت ، ثم سأله فى اهتمام :

ـ هناك أشياء عديدة ، أريد معرفتها منك .

أجابه (أدهم) فى بساطة :

ـ سَلْ ما بدا لك .

جذب (ياكوف) مقعدًا ، وجلس فى مواجهة (أدهم) تمامًا ، ثم سأله فى اهتمام شديد :

ـ كيف أمكنك التسلُّل أكثر من مرَّة ، عَبْر حرس منزلى الخاص ؟.. وكيف نجحت فى اختطاف ابنتى ، والعودة بها ، دون أن يشعر بك أحد منهم ، على الرغم من تدريبهم الفائق ، ومهاراتهم الشديدة ؟.. وكيف ....

قاطعه (أدهم) فى هدوء ، قائلًا :

ـ هذه أمور نعدّها بالغة السِّرِّيَّة فى دولتى أيها الرفيق ، وإذا كنت تودّ معرفتها حقًّا ، فسأخبرك بها وحْدَنا .

هتف (ياكوف) فى لهفة :

ـ لا بأس .

قفز (إيڤانوف) من مقعده ، وصاح :

ـ مهلًا أيها الرفيق الجنرال .. إنه يحاول خداعنا مرَّة أخرى .

هتف (ياكوف) فى عصبيَّة :

ـ وماذا يمكنه أن يفعل ؟.. لقد جرَّدناه من كل ما يحمله ، ويداه مقيَّدتان بالأغلال ، وسأقيم حراسة مكثفة على حجرتى و ....

قاطعه (إيڤانوف) فى توتُّر :

ـ نحن لا ندرى شيئًا من أساليب المخابرات المصرية أيها الرفيق الجنرال ، ومن الجائز أنه يحمل بعض الأدوات السِّرِّيَّة فى أزرار معطفه ، أو بطانته ، أو ....

قاطعه (ياكوف) هذه المرَّة ، وهو يقول :

ـ حسنًا .. حسنًا .. سينزع ملابسه كلها ، ويرتدى ملابس من هنا ، ثم أجتمع به وحدنا .. وعليك إحاطة الحجرة

كلها ، بما فى ذلك نوافذها بالجُند ، ومُرْهُم بإطلاق النار عليه ، إذا ما حاول الفرار .

ثم استدار إلى (أدهم) ، وسأله فى عصبيَّة :

ــ هل توافق على هذا ؟

ابتسم (أدهم) فى هدوء غامض ، وأجاب :

ــ بالطبع .. إنه يتوافق مع رأيى تمامًا .

* * *

جلس (ياكوف) يتأمَّل (أدهم) طويلًا ، بعد أن أصبحا وحدهما فى حجرة مكتبه ، ثم قال بعد فترة طويلة من الصمت :

ــ والآن .. هاتِ ما لديك .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ هل تظن خُطَّتك هذه المرَّة خالية من الثغرات ؟

اعتدل (ياكوف) ، وهو يقول فى صرامة :

ــ لا شك لدىَّ فى هذا .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة قصيرة ، وقال :

ــ اسمح لى إذن أن أقول إنها تحوى ثغرة كبيرة ، لم تنتبه أنت إليها .

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى توتُّر :

ــ أيَّة ثغرة هذه ؟

أشار (أدهم) إلى وجهه ، وقال فى هدوء :

ــ هذه ليست ملامحى الأصلية .

ابتسم (ياكوف) فى سخرية ، وقال :

ــ يالها من خدعة ساذجة هذه المرَّة أيها المصرى !! هل نسيت أننى أعرف ملامحك الأصلية جيِّدًا ، منذ اعتقلناك فى (سيبيريا) .

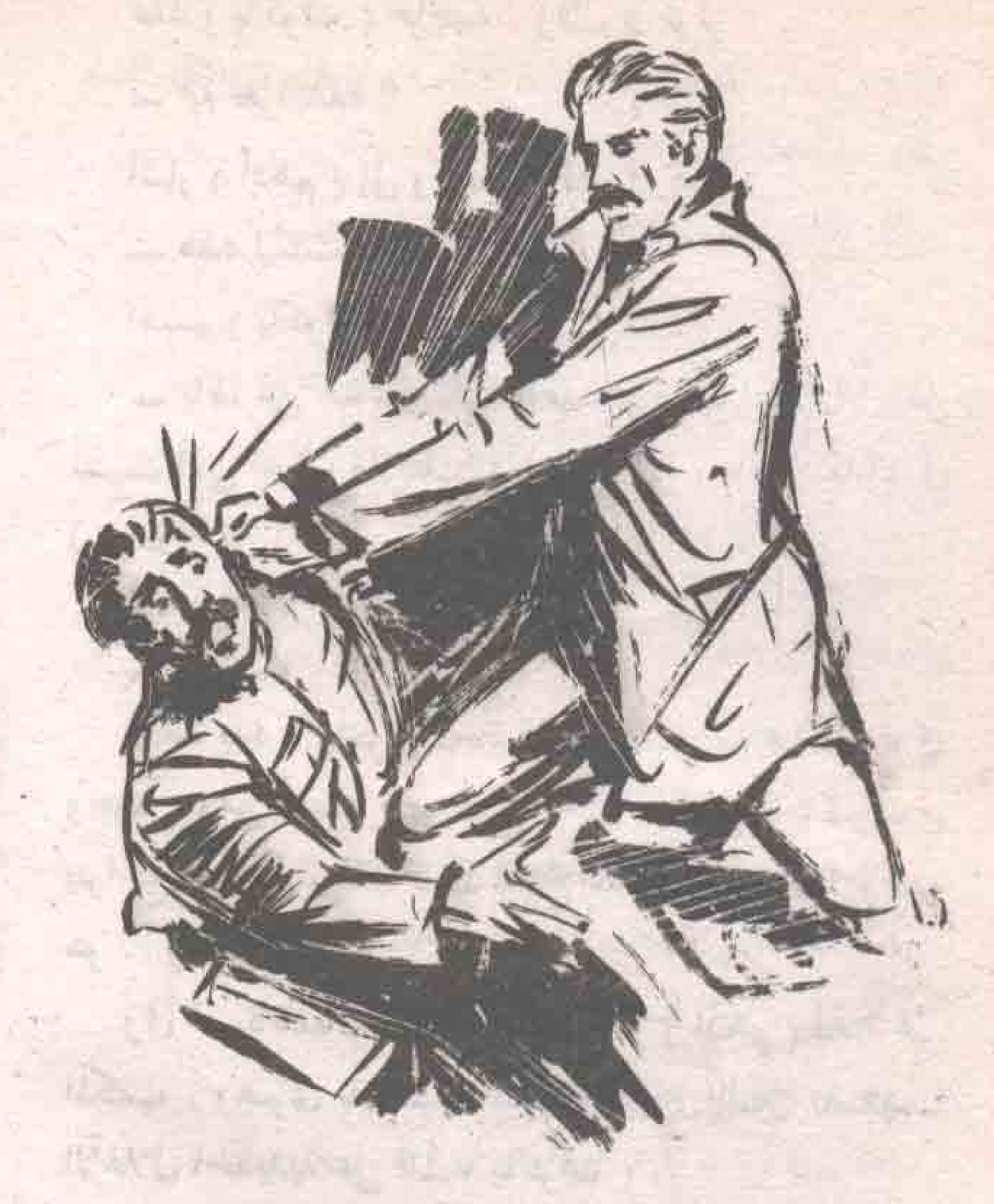
قال (أدهم) فى هدوء :

ــ كما تشاء .

ثم مدَّ يده ، وانتزع فجأة قناعًا يحمل ملامحه من فوق وجهه ، ومن أسفله ظهر قناع آخر ، جعل (ياكوف) يتراجع فى ذهول ، فقد كانت ملامح القناع الجديد تحمل وجهه هو .. وبدقة مذهلة ..

وفى غمرة هذه المفاجأة المذهلة ، قفز (أدهم) فجأة عَبْر المكتب ، وهوَى بقبضتيه المضمومتين ، اللتين تضمهما الأغلال الحديدية على فكِّ (ياكوف) .

* * *



قفز (أدهم) فجأة عبر المكتب ، وهوَى بقبضتيه المضمومتين ، اللتين تضمهما الأغلال الحديدية على فكِّ (ياكوف) ..

أخذ (إيڤانوف) يسير فى قلق جيئة وذهابًا ، أمام حجرة (ياكوف) ، ثم بلغ انفعاله ذروته ، عندما فُتِحَ باب الحجرة ، وظهر (ياكوف) على عتبته ، فأسرع إليه (إيڤانوف) ، وسأله فى توتُّر :

ــ هل أدلى إليك باعترافه ؟

هزَّ (ياكوف) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ــ لقد تظاهر بذلك ، ثم هاجمنى بغتة ، ولكننى أفقدته الوعى .

هتف (إيفانوف) فى دهشة :

ــ أفقدته الوعى .

أشار (أدهم) ، الذى ينتحل شخصية (ياكوف) ، إلى داخل الحجرة ، وقال :

ــ لقد نجحت فى ذلك هذه المرَّة ، وها هو ذا .

تطلَّع (إيڤانوف) إلى (ياكوف) ، الذى وضع (أدهم) القناع الذى يحمل ملامحه فوق وجهه ، ورأى الأغلال التى نقلها (أدهم) إلى يدى (ياكوف) ، وقال :

ــ ماذا نفعل به ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه ، وقال :

ـ ضعه فى إحدى زنزانات الإدارة ، حتى أعود إليه غدًا .

سأله (إيڤانوف) فى اهتمام :

ـ هل ستنصرف الآن ؟

أجابه وهو يتحرَّك مغادرًا المكان :

ـ نعم .. إننى أشعر بإرهاق شديد .

تطلَّع إليه (إيڤانوف) فى حَيْرة وهو ينصرف ، ثم التفت إلى أحد الجنود ، وقال فى صرامة :

ـ هيَّا .. ألقوا بهذا الشيطان فى إحدى زنزاناتنا ، حتى صباح الغد .

* * *



١٢ ـ الطريق إلى الحرية ..

فى الطريق الموصِّل ما بين مدينة (لينِنجراد) السوفيتية ، والحدود الفنلندية .. تطلَّعت النقيب (منى توفيق) فى ساعة يدها بقلق ، ثم هزَّت رأسها فى توتُّر ، وهى تقول :

ـ إنها الثانية عشرة ظهرًا ، وهو لم يصل بعد .. أخشى أن يكون قد فشل فى الهروب .

ازدرد (قدرى) لُعابه ، وغمغم :

ـ (أدهم) قادر على الإفلات من الموت نفسه ، ثم إن كل شىء معدّ ، ولا ينقصنا سوى توقيع واحد من (ياكوف) ، فنقلِّده ، وننطلق إلى الحريَّة .

غمغمت (منى) ، وكأنها تحادث نفسها :

ـ كل شىء ؟!

أجاب (حازم) :

ـ نعم أيَّتها النقيب .. لقد نجحنا فى الوصول إلى هنا بجوازاتنا ، التى تحمل الجنسية اليوغوسلافية ، والتى أضاف إليها

صديقنا القدير (قدرى) تأشيرة دخول إلى الأراضى الفنلندية .. كما أننا نحمل تصريحًا خاصًا بمرورنا عَبْر الحدود السوفيتية ، ولا ينقصه ــ كما قال صديقنا (قدرى) ــ سوى التوقيع .

هتفت (منى) فى حنق :

ــ ليس هذا ما يشغلنى ، وإنما أنا قلقة على (أدهم) و ....

بترت عبارتها فجأة ، حينما تناهى إلى مسامعها صوت هليوكوبتر تقترب ، ولم تلبث أن لاحت فوقهم ، وبدأت تدور حول نفسها ، وكأنها تهم بالهبوط ، فهتف (قدرى) فى مرح :

ــ يا إلهى !! .. هليوكوبتر عسكرية ؟ .. أراهن أنه (أدهم) .. يا له من رجل !!

استقرت الهليوكوبتر فوق الأرض ، على بعد أمتار قليلة منهم ، ثم فتح بابها ، وظهر على عتبته (ياكوف) ، الذى تطلّع إليهم مبتسمًا ، ثم هبط من الهليوكوبتر ، واقترب منهم بخطوات هادئة ثابتة ، فابتسم (حازم) ، وقال :

ــ (أدهم) يجيد تمثيل دور (ياكوف) بإتقان مذهل .. ولولا معرفتى أنه ينتحل شخصيته ، لأقسمت أن القادم نحونا هو (ياكوف) نفسه .

أطلق (قدرى) ضحكة خافتة ، على حين عقدت (منى) حاجبيها ، وهى تتمعَّن فى وجه القادم ، ثم تراجعت فى حِدَّة ، وهتفت بصوت مسموع :

ــ يا إلهى !! .. إنه (ياكوف) حقًّا .

التفت (حازم) و (قدرى) إليها فى دهشة ، ثم عادا يحدِّقان فى وجه القادم ، الذى أجابهم فى هدوء :

ــ إنها محقَّة أيها السادة .. أنا (ياكوف) الأصلىّ .

ومن داخل الطائرة ، برز فجأة عشرة من الجنود السوفيت ، صوَّبوا مدافعهم الرشاشة إلى صدور أفراد المخابرات المصرية الثلاثة ، على حين استطرد (ياكوف) فى شماتة :

ــ أعتقد أنها نهاية الرحلة يا سادة .

* * *

كان الموقف محبطًا للغاية ، حتى أن (حازم) و (قدرى) قد شعرا بسخط شديد ، على حين هتفت (منى) فى ذُعر :

ــ أين (أدهم) ؟ .. ماذا أصابه ؟

ابتسم (ياكوف) ، وقال :

ــ إنه شيطان رفيقك هذا يا سيِّدتى .. واطمئنى ، فهو الآن مطلق السراح ، وينتحل شخصيتى فى مهارة .. ولقد كاد

يبعدنى عن الأحداث تمامًا ، لولا أن استعدت وعيى فى اللحظة المناسبة ، ولم يكن من العسير إثبات شخصيتى .. ثم درست الأمر فى هدوء ، فوجدت طريقًا واحدًا ، يمكنكم اجتيازه ، للخروج من البلاد .. وهنا قرَّرت أن أسبق شيطانكم إلى هنا ، والهليوكوبتر كما تعلمون أسرع كثيرًا من السيارة .

تنهَّدت (منى) فى ارتياح ، وهتفت :

ـ إذن فهو مطلق السراح .. حمدًا لله .

تطلَّع إليها (ياكوف) فى دهشة ، ثم هزَّ رأسه فى حَيْرة ، وقال :

ـ تدهشنى كثيرًا تلك الروابط العجيبة بينكم يا أفراد المخابرات المصرية ، فالواحد منكم لا يبالى بمصيره ، فى سبيل الآخرين .. هذا مدهش حقًّا .

أسرع (حازم) يقول :

ـ لا صلة لنا بالمخابرات المصرية أيها الرفيق .

تطلَّع إليه (ياكوف) لحظة ، ثم أطلق ضحكة عالية ، وقال :

ـ لم تعُد هناك فائدة من الإنكار يا رجل .. لقد أصبحنا نلعب جميعًا بأوراق مكشوفة .

ثم أردف فى خشونة :

ـ والآن .. متى وعدكم هذا الشيطان المصرى بالحضور ؟

قالت (منى) فى حنق :

ـ يمكنك أن تقتلنا ، ولكنك لن تحصل منَّا على كلمة واحدة .

ابتسم (ياكوف) فى سخرية ، وقال :

ـ حسنًا يا سيِّدتى .. إننى لن أقتلكم ، ولكننى سأنتظر معكم وصول شيطانكم هذا .

وفجأة .. انبعث من الطائرة صوت ساخر يقول فى هدوء :

ـ اطمئن .. إنك لن تنتظر كثيرًا أيها الرفيق .

* * *

كثيرة هى المفاجآت التى تعرَّض لها (ياكوف) فى هذه العملية ..

كثيرة حتى أنه كاد ينهار ، حينما رأى أن قائد الهليوكوبتر ، التى أقلَّته إلى هنا ، لم يكن سوى (أدهم صبرى) نفسه ، الذى كان يصوِّب مسدسه إلى الجنود العشرة ، وهو يتبسم فى سخرية ، وهتفت (منى) فى حرارة :

ـ (أدهم) ؟! .. حمدًا لله .

غمغم (ياكوف) فى إحباط :

ـ كيف ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ لقد فهم كل منا الآخر جيدًا يا عزيزى (ياكوف) .. حتى أننى أيضًا ، أصبحت أجيد استنتاج خطواتك .. وكنت أعلم بالطبع ، أن المسافة من (موسكو) إلى هنا أطول من أن أقطعها بالسيارة ، قبل أن تكتشف أنت أمرنا ؛ لذا فقد اكتفيت بمغادرة إدارة مكافحة التجسُّس ، ثم أفقدت قائد الهليوكوبتر الخاصة بك وعيه ، وانتحلت شخصيته ، وانتظرت ، وأنا واثق من أنك ستفضّل الذهاب بالهليوكوبتر ، اختصارًا للوقت .. ولقد كان .

تغلَّب (ياكوف) على أثر المفاجأة فى سرعة ، وانتصبت قامته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لن أسمح لك بالفرار الآن أيها المصرى .

ثم صاح فى جنوده :

ـ أطلقوا النار يارفاق .. سيُرَقَّى من يقتله منكم .

استدار الجنود فى سرعة البرق ، وانطلقت رصاصات مدافعهم الرشَّاشة العشرة فى آن واحد ، واختلط صوت الرصاصات بصرخة ذُعر ، انطلقت من بين شفتى (منى) .

* * *

١٣ ـ الصراع الأخير ..

انهمر سيل من الرصاص على (أدهم صبرى) ، وأطلق هو رصاصاته ..

كان من المستحيل حقًّا أن تواجه رصاصات مسدسه الثمانية ، عشرة جنود بمدافعهم الرشَّاشة ؛ لذا فقد نزع (حازم) و (منى) مسدَّسيهما ، وشاركاه فى إطلاق النار ..

أطارت رصاصات (أدهم) المدافع الرشاشة ، لستة جنود فى الثانية الأولى ، ثم شعر برصاصة تخترق صدره ، من جانبه الأيمن ، وبثانية تعبر ذراعه ، ثم رأى رصاصات (منى) و (حازم) تصيب جنديَّين سوفيتين ، فرفع ذراعه اليسرى ، وهو يهتف :

ـ كلَّا يا رفاق .. لا تطلقوا الرصاص على ظهورهم .

وفجأة اخترقت رصاصة ثالثة فخذه ، فتهاوَى ساقطًا على ركبتيه ، وانتهز (ياكوف) فرصة سقوط (أدهم) ، وجزع رفاقه ، فأطار مسدسى (حازم) و (منى) برصاصات مسدسه ، ثم صاح فى رجاله :

ـــ سيطروا على الموقف يا رفاق .

التقط الجنود مدافعهم الرشّاشة ، وصوّبوها إلى (أدهم) ، الذى أصبح عاجزًا عن القتال ، من كثرة ما ناله من رصاصاتهم ، وإلى (حازم) و (منى) ، اللذين فقدا سلاحيهما ، وإلى (قدرى) ، الذى اهتزّ جسده البدين ، وهو يغمغم فى حنق :

ـــ يا إلهى !!.. إن طعم الهزيمة مُرٌّ حقًّا .. لقد أفقد شهيّتى تمامًا .

وقف (ياكوف) يتأمّل انتصاره الحقيقى لأول مرة ، وهو عاقد حاجبيه ، وكفّيه خلف ظهره ، ثم توقّفت نظراته عند وجه (أدهم) ، الذى لم تفارقه ابتسامته الساخرة ، على الرغم من إصاباته البالغة ، ثم رفع عينيه إلى (حازم) ، وسأله فى هدوء :

ـــ كيف كنتم تنوون مغادرة الاتحاد السوفيتى ؟

أجابه (حازم) فى بساطة :

ـــ كنا سنزوّر توقيعك على تصريح مرور .

أطرق (ياكوف) برأسه لحظة ، ثم عاد يسأل (حازم) :

ـــ ومن منكم سيفعل ذلك ؟

أجابه (قدرى) فى تحدٍّ :

ـــ إنه أنا .

تطلّع إليه (ياكوف) فى هدوء ، وبنظرة تخلو من العداء تمامًا ، ثم مدّ يده إليه ، وقال :

ـــ أين هذا التصريح ؟

ناوله (قدرى) التصريح ، فتأمّله (ياكوف) فى اهتمام ، ثم ابتسم ، وأخرج من جيبه ورقة ، فردها أمام وجه (قدرى) ، وهو يقول :

ـــ ها هوذا توقيعى أسفل هذه الورقة .. هل يمكنك تقليده ؟

وبدلًا من أن يجيبه (قدرى) ، اكتفى بنظرة طويلة على التوقيع ، ثم تناول قلمه ، وذيّل التصريح ، بتوقيع يصعب تمييزه عن توقيع (ياكوف) الأصلى ، وفى بساطة متناهية .. فابتسم (ياكوف) ، وقال :

ـــ هذا رائع .

ثم التفت إلى جنوده ، وقال فى صرامة :

ـــ انقلوا هذا الجريح إلى سيارة رفاقه .. سأقودهم وحدى إلى أقرب نقطة حراسة .

سأله أحد الجنود فى دهشة ، وكأنه يحاول التأكد مما سمعه :

ـــ وحدك يا سيِّدى الرفيق الجنرال ؟!

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـــ نعم .. وحدى أيها الرفيق الجندى .

* * *

جلس (حازم) و (منى) فى المقعد الخلفى للسيارة ، منهمكَيْن فى تضميد جروح (أدهم) ، على حين جلس (قدرى) بجسده البدين فى المقعد الأمامى ، إلى جوار (ياكوف) ، الذى كان يقود السيارة بنفسه ، دون أن يلتفت إلى راكبيها ، وكأنه يوليهم ثقته المطلقة .. فانحنت (منى) على أذن (أدهم) وهمست :

ـــ إنه مغرور .. يمكننا أن نهزمه و ....

قاطعها (أدهم) ، وهو يقول فى صوت مرتفع :

ـــ تحدَّثى بصوت مسموع يا عزيزتى .. فصديقنا (ياكوف) لا ينوى إيذاءنا بالمرَّة .

نقَل الجميع أبصارهم فى دهشة ، بين (أدهم) و (ياكوف) ، الذى قال فى هدوء :

ـــ كيف عرفت أيها الرفيق (أدهم) ؟

أشار (أدهم) إلى الطريق ، وقال :

ـــ إنك تقود السيارة نحو الحدود الفنلندية ، وليس العكس .

ساد الصمت لحظة ، ثم أردف (أدهم) :

ـــ دَعْنى أنا أسألك ، لِمَ فعلت ذلك ؟

خيَّم على جوِّ السيارة صمت ثقيل ، ثم أجاب (ياكوف) :

ـــ لست أدرى أيها الرفيق (أدهم) .. ولكننى اتخذت هذا القرار ، عندما سمعتك تهتف برفاقك ، طالبًا منهم عدم إطلاق النار على الجنود فى ظهورهم ، فى حين أن هؤلاء الجنود يطلقون النار عليك .

صمت مرَّة ثانية ، ثم أردف :

ـــ لقد رأيت فى حياتى صورًا عديدة للشهامة والفروسية ، ولكنها المرَّة الأولى التى أرى فيها مثل هذا الموقف ، ورجل مثلك أيها الرفيق (أدهم) ، لا يستحق منِّى سوى الإعجاب والاحترام فقط .

ثم أوقف السيارة ، واستطرد فى هدوء :

— لديكم الآن تصريح مرور يحمل توقيعًا يشبه توقيعى ، وسيؤكد الخبراء بعد فراركم أنه مزوَّر .. كما أن أحدًا لن يشك فى أقوالى ، حينما أقول إنكم باغتمونى ، وأفقدتمونى الوعى ، وفررتم فى أثناء غيبوبتى .

أسرع (حازم) يحتل مقعد القيـــادة ، على حين بدا (ياكوف) مهمومًا ، وهو يقول لـ (أدهم) :

— أنا لست خائنًا لوطنى أيها الرفيق (أدهم) ، ولكننى أجد نفسى عاجزًا عن إيذائك .

حاول أن يبتسم ، ولكنه فشل وهو يستطرد :

— لست أدرى لماذا ؟.. ربما لأنك أعدت لى ابنتى فى شهامة لم أعهدها فى عالمنا .. أو ربما لأنك أعظم رجل مخابرات رأيته فى حياتى .. حقيقة لست أدرى .

ثم أشار إلى الطريق ، وقال :

— والآن انطلقوا .. قبل أن أبدِّل آرائى .

هبط (أدهم) من السيارة ومدَّ يده يصافح (ياكوف) فى حرارة ، على الرغم من جروحه الخطيرة ، وقـــال فى احترام :

— لن أنساك أبدًا أيها الرفيق (ياكوف) .. وأريد منك أن تتذكر دائمًا أنه هناك صديق لك فى مصر ، لن ينسى أبدًا موقفك هذا .

تبادل الرجلان نظرة عميقة ، ثم عاد (أدهم) إلى السيارة ، التى انطلقت أخيرًا نحو الحرية ، تاركةً (ياكوف) خلفها ، يتابعها ببصره وهو يغمغم :

— وداعًا يا رجل المخابرات المصرى .. وداعًا يا أعظم رجل مخابرات فى العالم .

* * *



١٤ — الختام ..

ازدحمت حجرة (أدهم صبرى) ، فى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى ، بالزائرين من رجال إدارة المخابرات العامة المصرية .. يهنئونه بسلامة العودة ، وبالشفاء من جراحه الخطيرة .. وقال مدير المخابرات ، وهو يربِّت على كتف (أدهم) :

— لقد كانت عملية رائعة يا (أدهم) ، وإن أثارت أعصابنا لأربعة شهور كاملة .

ابتسم (أدهم) وهو يغمغم :

— ولكنها نجحت يا سيِّدى .

ضحك مدير المخابرات ، وقال :

— أنت تنجح دائمًا يا (أدهم) .

ابتسم (أدهم) ، ثم عاد يسأل مدير المخابرات فى اهتمام :

— هل عرفتم ماذا أصاب (ياكوف) ؟

مطَّ مدير المخابرات شفتيه فى أسف ، وقال :

— لقد استقال من عمله ، دون أن يطالبه أحد بذلك .

ظهر الحزن على وجه (أدهم) ، وقال :

— كم يؤسفنى ذلك يا سيِّدى .. إنه رجل رائع .. مخلص لوطنه ومبادئه ..

أومأ مدير المخابرات برأسه موافقًا ، وقال :

— ربما كان إخلاصه هذا هو سبب استقالته ، فربما أن ضميره لم يحتمل البقاء فى منصبه ، بعد أن عاونكم على الفرار .

قال (أدهم) :

— لقد فعل ما أملاه عليه ضميره — آنذاك — يا سيِّدى .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، ثم أشار إلى الآخرين ، قائلًا :

— آن موعد العودة إلى الإدارة يا رجال ، فينبغى أن نترك المريض يرتاح قليلًا .

غادر الجميع حجرة (أدهم) ، عدا (منى) ، التى ابتسمت فى خجل ، وهى تقول :

— أتمنى لك الشفاء العاجل يا (أدهم) .

ابتسم فى حنان ، وهو يقول :

ـ أنا أيضًا أتمنّى الشفاء العاجل ، حتى يتم زواجنا ياعزيزتى .

حدّقت فى وجهه بدهشة ، وهتفت فى عجب :

ـ زواجنا ؟!.. من أوحى لك بهذه الفكرة ؟

عقد (أدهم) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ أنت ياعزيزتى .. لقد وافقت على الزواج منّى فى السفارة المصرية عندما ....

قاطعته (منى) فى جِدّة :

ـ لست أذكر أننى فعلت .

غمغم (أدهم) فى حَيْرة :

ـ ولكن يا (منى) .

ابتسمت فى خبث ، وقالت :

ـ لا تنس أننى لم أستعد ذاكرتى كلها بعد .

ابتسم فى مكر مماثل ، وقال :

ـ ومتى ستستعيدين لحظة أعطيتنى هذا الوعد ؟

تضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وقالت :

ـ لست أدرى .

سألها فى حنان :

ـ هل تعدين بإخبارى ، وقتما تستعيدين كامل ذاكرتك ؟

فهمت ما يرمى إليه ، من إعفائها من الحرج .. فقبضت على كفّه بأصابعها الرقيقة ، وقالت فى عاطفة :

ـ من يدرى يا (أدهم)؟.. ربما كان ذلك أقرب مما تتصوّر ، ولكننى أعِدك .. أعِدك يا (رجل المستحيل) .

* * *

[تمت بحمد الله]